مِنْ مَوْضُوعَاتِ سُوَرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

« ٤ »

حُقُوقُ الإِنسَانِ

فِي

سُورَةِ النِّسَاءِ

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

الدار الشامية

بيروت

دار القلم

دمشق

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

حقوق الإنسان
في
سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن من أبرز ما أفرزته الحضارة المادية الغربية المعاصرة، كثرة العدوان على حقوق الناس ومصادرتها، وهو ما تؤكده الأصوات الكثيرة المرتفعة من كل مكان، الداعية إلى الدفاع عن المظلومين وحماية حقوق المضطهدين، ومساعدة اللاجئين والنازحين عن بلادهم وأوطانهم، فراراً من الظلم والطغيان.

ولقد اهتمت الشريعة الإسلامية، التي أنزلها الله تعالى برحمته، لرعاية مصالح الناس وهدايتهم، بحقوق الإنسان اهتماماً كبيراً، حتىٰ قرنت بينها وبين حقوقه تعالى على عباده، وقدمتها في كثير من الحالات عليها، وجعل سبحانه حقوق الإنسان الموضوع الأساسي لسورة النساء، أطول سور القرآن الكريم بعد البقرة، وأغناها بالأحكام الشرعية العملية.

ويتميز القرآن الكريم عن غيره بأساليبه الرفيعة في معالجة موضوعاته وأفكاره، فهو كتاب هداية وتربية تمتد إلى كل جوانب الحياة البشرية الدنيوية والأخروية، وسيلمس القارىء هذه الحقيقة عندما يقف على الأسلوب المتميز الذي عالجت فيه سورة النساء موضوع حقوق الإنسان، في تقريرها وحمايتها، والكشف عن بواعث العدوان في أعماق النفس البشرية، وتربيتها وتهذيبها، وفي المبادرة في أول السورة إلى الدفاع عن المظلومين، وتأمين حقوق المضطهدين والمستضعفين في المجتمعات الجاهلية، وفي تشريع الجهاد والحث عليه، كوسيلة من وسائل الدفاع عن المظلومين وحماية حقوق المضطهدين، بحيث يشعر القارىء أن خير ضمانة لحماية حقوق

الإنسان هو في الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية، وتطبيقها على مستوى الأفراد والمجتمعات والحكومات.

وقد جاء الكتاب ـ بحمد الله تعالى ـ في فصوله السبعة، متفقاً تماماً مع موضوع السورة الأساسي، ومنسجماً مع تسلسل آياتها:

الفصل الأول: حقوق الضعفاء.
الفصل الثاني: آفات نفسية.
الفصل الثالث: الحكم بشريعة الله تعالى.
الفصل الرابع: التكليف بالجهاد والحض عليه.
الفصل الخامس: حادثة بني الأبيرق.
الفصل السادس: الثبات على الإيمان والتزام التقوى والعدل.
الفصل السابع: عقائد أهل الكتاب.

إن هذا الكتاب دعوة إلى الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية، يبين المستوى الإنساني الرفيع الذي بلغته أحكام هذه الشريعة، من خلال مصدرها الأول كتاب الله تعالى.

أسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

اللهم آمين، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفقير إلى الله تعالى

عبد الحميد محمود طهماز

المعهد العالي لإعداد الأئمة والدعاة

مكة المكرمة ٦/ ٤/ ١٤١٢ هـ
١٣/ ١٠/ ١٩٩١ م

مَوْضُوعُ سُورَةِ ٱلنِّسَآءِ

اهتمت سورة النساء بحقوق الإنسان، ودارت معظم آياتها في فلكه، فقد قررت في أول آياتها وحدة الأصل الإنساني للبشر، ومساواتهم في دين الله تعالى وشرعه، وربطت بين حقوق الله تعالى وحقوق الإنسان؛ إذ هو تعالى خالق الإنسان ومالك أمره، وهو الذي شرع له هذه الحقوق، وأمر الناس أن يتقوه بالتزامها واحترامها.

وكلما تشعبت أفكار السورة وموضوعاتها، عادت إلى التذكير بحقوق الإنسان وتعظيمها، ولعل هذا سبب تأخير إحدى آيات الميراث إلى ختامها. ولم تقرر السورة هذه الحقوق تقريراً جامداً جافاً، كما هو الحال في القوانين والتشريعات الوضعية، بل جاء تقريرها بأسلوب التربية والتهذيب، فالقرآن الكريم كتاب هداية وتربية، يربي ويشرع في آن واحد، ومن خلال تهذيبه للنفوس وتربيتها شرع الكثير من الأحكام المتصلة بحقوق الناس على بعضهم.

وركزت السورة في صدرها على حقوق الضعفاء في المجتمع، وخاصة اليتامى والنساء، وهما الجانبان المستضعفان في المجتمعات الجاهلية، فاهتمت الآيات بهم اهتماماً كبيراً، وقررت لهم حقوقهم الإنسانية الكاملة، وأمرت الأولياء والأوصياء والقضاة وولاة الأمر بالمحافظة عليها، وأبرزت من خلال ذلك حق الإنسان في الملكية الفردية المشروعة، وحقه في سلامة عرضه وحياته وعقيدته وعبادته.

وغاصت الآيات إلى أعماق النفس البشرية، فكشفت الأمراض والآفات النفسية التي تدفع الناس إلى العدوان على حقوق بعضهم، كآفات الحسد والبخل والكبر والعجب والرياء، وعرضت شرائح من أبناء المجتمع المدني في عصر التنزيل، أصيبوا بهذه الآفات وابتلوا بها؛ تحذيراً لعامة الناس منها.

واهتمت الآيات بتشريع الجهاد، وجعلت من مقاصده الدفاع عن حقوق المستضعفين من الناس، كما بينت حرص الشريعة الإسلامية على حياة الناس، فأمرت المجاهدين بالتثبت في أثناء القتال، فالجهاد ما شرعه الله تعالى للقتل وسفك الدماء، وإنما شرعه سبحانه لغايات سامية رفيعة، منها تأمين الحقوق والمحافظة عليها.

وحضّت الآيات الناس على أن يحرصوا على حقوقهم ويتمسكوا بها، وأمرتهم أن يسعوا بأنفسهم لسلامتها، وشرعت لهم الوسائل التي تسلم بها حقوقهم، كالهجرة من البلد الذي لا تصان فيه الحقوق، وكالتشهير بالظالمين وفضحهم وتحذير الناس من ظلمهم وبغيهم، ووقفت الآيات عند حادثة بني الأبيرق، فأبرزت حقاً من أهم حقوق الإنسان، وهو براءة ذمته حتىٰ تثبت إدانته، وبينت أيضاً من خلال ذلك اهتمام الإسلام بمبدأ العدل، وأداء الأمانات وإيصال الحقوق إلىٰ أصحابها، وأداء الشهادة بالصدق والحق، وربطت كل ذلك بتقوى الله تعالى وعبادته وحده، فإن مراعاة حقوق العباد جزء لا يتجزأ من حقه تعالى عليهم بتوحيده وعبادته وحده سبحانه. وردت الآيات على أهل الكتاب، الذين جحدوا نبوة النبي ﷺ، وطعنوا في صحة رسالته، فبينت بطلان عقائدهم، وعدوانهم على حقوق الناس، وأكلهم لأموالهم بالباطل، وجرأتهم على الأنبياء عليهم السلام، بالافتراء على بعضهم وقتل آخرين، ثم توجت كل ذلك بشهادته تعالى على صدق نبوة النبي ﷺ وصحة رسالته، وأنها الرسالة العامة التي ختم الله تعالى بها رسالاته إلى الناس، ورضيها لهم ديناً وشرعاً، يحمي لهم حقوقهم، إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الفصل الأول

حُقُوقُ الضُّعَفَاءِ

الأصل الإنساني الواحد

بدأت سورة النساء بتقرير وحدة الأصل الإنساني لجميع البشر، من خلال هذا النداء الإلهي العلوي الموجه إليهم جميعاً، سواء في ذلك الموجودون في عصر التنزيل وكل من يأتي بعدهم إلى قيام الساعة.

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ بخشيته وطاعته والتزام أحكام شريعته، فهو سبحانه خالقكم ومربيكم ومالك أمركم شئتم أم أبيتم.

وظهرت في هذا النداء المناسبة بين توحيد الحق سبحانه، ووحدة الأصل البشري، ودلت كلمة (ربكم) على صلة المخاطبين بالله تعالى، وأن عليهم أن يحافظوا على هذه الصلة، بعبادته سبحانه وحده، والتزام أحكام شريعته.

﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ والمراد بها نفس آدم عليه السلام.

وهذا دليل على كمال قدرته تعالى، وأنه حقيق أن يُتقىٰ، فإن خلق الناس من نفس واحدة، مع ما بينهم من اختلاف في الأجناس والصفات والألوان والمواهب والملكات، من أعظم الدلائل على وجوده تعالى وكمال قدرته وحكمته؛ ولهذا قال تعالى في موضع آخر: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾[1].

وفي الآية رد على الماديين المنكرين لوجود الخالق جل جلاله، قال الفخر الرازي رحمه الله: فلو كان الأمر بالطبيعة والخاصية لكان المتولد من الإنسان الواحد لم يكن إلا أشياء متشاكلة في الصفة، متشابهة في الخلقة والطبيعة، فلما رأينا في أشخاص الناس الأبيض والأسود والأحمر والأسمر، والحسن والقبيح، والطويل

---

(١) الروم: الآية ٢٢.

والقصير، دل ذلك على أن مدبرها وخالقها فاعل مختار، لا طبيعة مؤثرة، ولا علة موجبة[1].

وذكر سبحانه هذا المعنىٰ أيضاً في قوله الكريم: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقىٰ بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[2].

﴿وخلق منها زوجها﴾ أي: وخلق من نفس آدم زوجه، وهي المرأة الأولى، خلقها تعالى من جزء من أجزاء آدم عليه السلام، وقد بين النبي ﷺ هذا الجزء الذي خلقت منه حواء فقال: «إن المرأة خلقت من ضِلَع، لن تستقيم لك على طريقته، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عِوَج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرُها طلاقُها»[3].

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً وهو يوصي بالنساء: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعـوجَ، فاستوصوا بالنساء خيراً»[4].

قال ابن حجر رحمه الله قوله: (فإنهن خلقن من ضلع) بكسر الضاء وفتح اللام، وقد تسكن، وكأن فيه إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحاق في المبتدأ عن ابن عباس «إن حواء خلقت من ضلع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم» وكذا أخرجه ابن أبي حاتم وغيره من حديث مجاهد[5].

فالمراد من (زوجها) الأم الأولى للبشر، والزوج في لغة العرب يطلق على الرجل والمرأة؛ لأن الرجل يكون منفرداً، فإذا اتخذ امرأة فقد صارا زوجاً، وأصبح كل واحد منهما زوجاً للآخر، وكلمة: زوجة، لغة رديئة، وشاعت عند الفقهاء ليميزوا بينها وبين الرجل، قال تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾[6].

فالمرأة خلقت من بعض أجزاء الرجل، وعندها لهذا السبب ميل ونزوع فطري

(١) التفسير الكبير ٩/١٦٥.
(٢) الرعد: الآية ٤.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الرضاع (١٤٦٨).
(٤) صحيح البخاري، كتاب النكاح (٥١٨٦).
(٥) فتح الباري ٩/٢٥٣.
(٦) البقرة: الآية ٣٥.

وطبيعي إليه، وكذلك عند الرجل ميل إلى المرأة وأنس بها، قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[1]. وهذا ينفي التصورات السخيفة التي كانت سائدة بين الناس، والتي ترى المرأة منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء[2].

﴿وبث منهما﴾ أي: نشر سبحانه منهما بالتوالد والتناسل.

﴿رجالاً كثيراً ونساءً﴾ أي: ونساء كثيرة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ أي: والبرد.

ورأى بعضهم في ذلك تنبيهاً على أن اللائق بحال الرجال الظهور والاشتهار، وبحال النساء الاختفاء والخمول[3]. ودلت الآية على أن جميع البشر أسرة إنسانية واحدة.

مبادىء في التواصل والتعاون

ثم كررت الآية الأمر بالتقوى؛ إشعاراً بأهميتها، وخاصة في مجال الصلات الاجتماعية بين الناس، ولهذا جاء في المرة الثانية مقروناً بذكر الأرحام، التي هي أهم أسباب التواصل والتقارب بين الناس:

﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ أي: اتقوا الله الذي يسأل بعضكم بعضاً به، وذلك بطاعته وترك معصيته، واتقوا الأرحام بصلتها وعدم قطعها. وأصل (تساءلون) تتساءلون، وقرأت (تسَّاءلون) بإدغام التاء في السين، وقرأ بعضهم (الأرحامِ) بالخفض عطفاً على الضمير(به) أي: تساءلون بالله وبالأرحام، كقولك، سألتك بالله وبالرحم، وناشدتك بالله وبالرحم. وكان من عادة العرب أن يقولوا ذلك.

والسؤال بالأرحام ضرب من الاستعطاف، وليس قَسَماً بها، والمراد منها الأقارب فتشمل كل من يجمع بينك وبينه نسب وإن بعد[4].

وبهذا المعنىٰ يكون في الآية تعريض بعاداتهم في الجاهلية؛ إذ كانوا يتساءلون بينهم بالرحم وأواصر القرابة، ثم يهملون حقوقها ولا يصلونها، ويعتدون على الأيتام

---

(١) الروم: الآية ٢١.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ١/٥٧٤.
(٣) تفسير الخازن ٢/٣.
(٤) روح المعاني ٤/١٨٥.

من إخوتهم وأبناء أعمامهم، فناقضت أفعالهم أقوالهم[1].

﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ [١] أي: حافظاً عالماً لا يغيب عنه شيء من أمر خلقه، فهو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم، كما جاء في الحديث الصحيح «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ففي الآية تقرير للمساواة بين الناس في الأصل الواحد، وحث لهم على التواصل والتعاون والتعارف، واحترام حقوق بعضهم، قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[2].

ويتأكد الأمر بالتواصل والتعاون كلما ازدادت صلات القرابة بين الناس وقويت. قال القرطبي رحمه الله: اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرمة، وقد صح أن النبي ﷺ قال لأسماء وقد سألته: أأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك» فأمرها بصلتها وهي كافرة، فلتأكيدها دخل الفضل في صلة الكافر[3].

والناس في أشد الحاجة إلى هذه المبادىء، مبادىء المساواة والتعارف والتعاون والتواصل، ولا يمكن للإنسان أن يتمتع بحقوقه الإنسانية إلا في ظلها، ولهذا قررها تعالى في أول آيات السورة، بكل هذه الصراحة والوضوح والحزم والإلزام.

المحافظة على أموال اليتامىٰ

وبادرت الآيات بعد إعلان هذه المبادىء، إلى تشريع الأحكام التي تضمن تطبيقها بين الناس، فالإسلام لا يكتفي بإعلان المبادىء البراقة، ويتركها خالية فارغة عن مضمونها. وبدأت الآيات بتشريع الأحكام التي تكفل حماية حقوق الضعفاء في المجتمع، فالمجتمع الذي يتمتع الضعفاء فيه بحقوقهم كاملة، لا بد أن يكون مجتمعاً إنسانياً كريماً، يتمتع جميع أفراده بحقوقهم الإنسانية الكاملة.

والمستضعفون في المجتمعات الجاهلية الأيتام والنساء، فحقوقهم مهدورة وأموالهم مأكولة؛ ولهذا توجهت الآيات بالخطاب إلى أوصياء الأيتام وأوليائهم، تأمرهم

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ٤/٢١٨.

(٢) الحجرات: الآية ١٣.

(٣) تفسير القرطبي ٥/٦.

بالمحافظة على أموال الأيتام، وتحذرهم من التفريط بها والعدوان عليها:

﴿وآتوا اليتامىٰ أموالهم﴾ أي: إذا بلغوا ورشدوا، كما سيأتي.

واليتيم: الإنسان الصغير الذي مات أبوه، من اليتم، وهو الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة لانفرادها، ويقع اسم اليتيم على الصغير والكبير لغة، لبقاء معنىٰ الانفراد عن الآباء، لكن في العرف اختص اسم اليتيم بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، فإذا بلغ الصبي وصار يستغني بنفسه عن غيره زال عنه اسم اليتيم[1].

وفي الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا يتم بعد بلوغ»[2].

ويستدعي تسليم اليتامى أموالهم عند بلوغهم المحافظة عليها، فالمراد بإيتاء أموالهم، قطع المخاطبين أطماعهم الفارغة عنها، وكف أكفهم الخاطفة عن اختزالها، وتركها على حالها غير متعرض لها بسوء، حتى تأتيهم وتصل إليهم سالمة[3].

ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ أي: لا تستبدلوا أموال اليتامى المحرمة عليكم بأموالكم، فتتركوا أموالكم الحلال، وتأكلوا الحرام من أموالهم، فالخبيث والطيب الحرام والحلال. وقد يكون المراد من الخبيث والطيب، الرديء والجيد، وكان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون مكانه الرديء، فيأخذ أحدهم الشاة السمينة، ويجعل مكانها الهزيلة، ويأخذ الدرهم الجيد ويجعل مكانه الزائف، ويقول: شاة بشاة ودرهم بدرهم، فذلك تبديلهم فنهوا عنه[4].

ثم نهاهم سبحانه عن منكر آخر كانوا يتعاطونه، فقال:

﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ أي: لا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم، ولا تسووا بينهما في الأكل، فهذا حلال وذاك حرام. أو: لا تأكلوها مع أموالكم.

﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾ [٢] أي: إن أكل أموالهم ذنب عظيم، فاحذروا من الوقوع فيه.

---

(١) تفسير الخازن ٢/٥.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/١٣٩.

(٤) تفسير الخازن ٢/٥.

تحريم ظلم البنات اليتامى

ثم نهاهم سبحانه عن منكر آخر كان شائعاً بينهم في الجاهلية، يتعلق بحقوق البنات اليتامىٰ، فقال:

﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامىٰ﴾ أي: إن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن.

﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ أي: فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن.

فالآية تحرص على دفع الظلم المتوقع عن اليتيمات، ولهذا بالغت في صرفهم عنهن وترغيبهم بغيرهن من النساء، ففيها مسارعة إلى دفع الشر قبل وقوعه، فرب واقع لا يرفع[1].

وكانوا قبل نزول الآية يتزوجون من تحل لهم من اليتامىٰ، لا رغبة فيهن، بل في مالهن، ويسيئون في صحبتهن ومعاشرتهن، أو لا يعطونهن مهور أمثالهن من النساء، بينت ذلك السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سألها عروة بن الزبير عن قوله تعالى: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامىٰ﴾ فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهن، إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿ويستفتونك في النساء﴾ وقول الله تعالىٰ في آية أخرى: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال. قالت: فنهوا أن ينكحوا عمن رغبوا في ماله وجماله في يتامىٰ النساء، إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال[2].

ونبه ابن حجر رحمه الله إلى أن قول عائشة رضي الله عنها: وقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾. كذا وقع في رواية صالح، وليس ذلك في آية

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٢/١٤٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٧٤).

أخرى، وإنما هو في نفس الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ويستفتونك في النساء﴾[1]، كما سيأتي إن شاء الله.

تشريع تعدد الزوجات

﴿مثنىٰ وثلاث ورباع﴾ أي: ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، لا يزاد على ذلك.

وبهذا تكون الآية قد أضافت بيان حكم شرعي آخر، إلى جانب تحريم ظلم اليتامىٰ من النساء، وهو مشروعية تعدد الزوجات، فيجوز لكل رجل أن يختار لنفسه قسماً من هذه الأقسام بحسب حاله، فإن قدر على نكاح اثنتين فاثنتان، وإن قدر على ثلاث فثلاث، وإن قدر على أربع فأربع. لا أنه يضم عدداً، وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة، وأن الزيادة على أربع من خصائص رسول الله ﷺ، التي لا يشاركه فيها أحد من الأمة[2].

فالمقام مقام امتنان وإباحة، ولو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره، قال الشافعي رحمه الله: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ، المبينة عن الله، أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة. وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء[3].

روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعاً».

والجدير بالذكر أن تعدُّدَ الزوجات كان مشروعاً في الشرائع السابقة بدون حد، وشائعاً بين الأمم، والشريعة الإسلامية هي التي حددت التعدد ومنعت الزيادة على أربع.

ولم يكتف الإسلام بالتحديد ويتركه لهوى الرجل، بل قيده بالعدل، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

---

(١) فتح الباري ٨/٢٤٠.
(٢) تفسير الخازن ٢/٧.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٥٦.

﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ أي: إن خفتم ألا تعدلوا بين أربع زوجات، أو بين ثلاث أو ثنتين، فاختاروا واحدة، أو فحسبكم واحدة، واتركوا الجمع.

﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ أي: أو ما ملكتم من الإماء السراري بالتملك المشروع، وقد قيدته الشريعة الإسلامية بشروط وقيود، بحيث يندر تحققه.

﴿ذلك أدنىٰ ألا تعولوا﴾ [٣] أي: اختيار الزوجة الواحدة أقرب إلى ألا تميلوا عن الحق وتجوروا.

قال بعضهم: إن فيها إشارة إلى استحباب الزيادة على الواحدة لمن لم يخف عدم العدل، لأنه سبحانه قدم الأمر بالزيادة، وعلق أمر الواحدة بخوف عدم العدل، ويا ما أُحَيْلىٰ الزيادة إن ائتلفت الزوجات[1].

وأما إن خاف الجور فيمنع من التعدد ويحرم عليه، درءاً لمفسدة الظلم، فما يؤدي إلى الحرام فهو حرام في الشريعة الإسلامية، والعدل مطلب أساسي هام في التشريع الإسلامي، كما سيأتي.

والعدل الواجب على الزوج بين نسائه هو العدل الذي يقدر عليه، وذلك بالتسوية بينهن في النفقة والبيتوتة والصحبة وحسن العشرة، ولا يكلف أن يعدل بينهن فيما لا قدرة له عليه، وهو الميل والمحبة، فذلك من أعمال القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، وسيأتي قوله تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾.

وفي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[2] قال الترمذي: يعني به الحب والمودة، كذلك فسره أهل العلم.

ولتعدد الزوجات في الإسلام حكم كثيرة، أفاض العلماء في الحديث عنها، وأفردها بعضهم بالتأليف، ويكفي أن نذكر أن الخلل الاجتماعي الذي تشهده كثير من المجتمعات البشرية المعاصرة، نتيجة زيادة عدد النساء على الرجال، بسبب كثرة القتل

---

(١) روح المعاني ٤/١٩٦.

(٢) رواه الأربعة وصححه ابن حبان والحاكم.

بين الرجال في الحروب المدمرة، يجعل من تعدد الزوجات أمراً لازماً لحل هذه المشكلة، فضلاً عن كثير من العقبات التي تواجه كثيراً من الأزواج، كعقم الزوجة أو مرضها مرضاً يمنع زوجها من الاتصال بها، أو مسارعة الضعف والشيخوخة إليها، أو شدة الغريزة عند بعضهم، بحيث لا تكفيه امرأة واحدة لتحصينه وحمايته من شرور الزنا ومفاسده[1].

حق الزوجة في المهر

ثم قررت الآيات حق المرأة المنكوحة في المهر مطلقاً، اليتامى في ذلك وغيرهن سواء، فوجهت الخطاب إلى الأزواج لأنهم المكلفون بذلك، وإلى الأولياء الذين يأخذون مهور بناتهم ونسائهم:

﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ أي: أعطوهن مهورهن عطية من الله تعالى للمرأة، أو: عطية عن طيب نفس منكم.

والتعبير عن إيتاء المهور بالنحلة، مع كونها واجبة على الأزواج، لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر[2].

﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً﴾ أي: فإن طابت نفوسهن عن شيء من ذلك الصداق فوهبنه لكم.

﴿فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ [٤] أي: فكلوه طيباً سائغاً لا إثم فيه ولا ملامة.

وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك، ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فقال: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً﴾ ولم يقل: فإن وهبن لكم[3]. فلا يحل أخذ ما تدفعه المرأة بسيف الحياء أو بالقهر والإكراه وسوء المعاملة.

ودلت الآية أيضاً على أن المهر حق المرأة، فلا يجوز لوليها أن يزوجها بدون مهر، فإن فعل ذلك فلها مهر أمثالها من النساء، وفي الحديث الشريف عن ابن عمر

---

(١) انظر: الزواج في الإسلام للمؤلف ص ٧٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/١٤٣.
(٣) تفسير النسفي ٢/٩.

رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن الشِّغار، والشِّغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق[1].

وذكر البنت في تفسير الشِّغار مثال، وقد تقدم في رواية أخرى ذكر الأخت، قال النووي: أجمعوا على أن غير البنات من الأخوات وبنات الأخ وغيرهن كالبنات في ذلك[2].

الحجر على السفهاء

وكما اهتمت الآيات بالمحافظة على الحقوق الخاصة بأبناء المجتمع، وخاصة الضعفاء، اهتمت أيضاً بالحقوق العامة للمجتمع، فالشريعة الإسلامية شريعة شاملة كاملة، تلبي جميع حاجات الناس التشريعية، الفردية والاجتماعية، وتقيم توازناً بين حقوق الفرد الخاصة وبين حقوق المجتمع العامة، ففي الوقت الذي تقرر حقوق الأفراد وتصونها لهم، تقرر أيضاً حقوق المجتمع وتصونها له، وقد أبرزت الآيات هذه الحقيقة في سياق بيانها للحقوق الفردية الخاصة بالضعفاء في المجتمع، بقوله تعالى:

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم﴾ أي: لا تعطوا السفهاء أموالهم، والسفهاء هم الذين لا يحسنون التصرف في المال، فيضيعونه بغير فائدة.

وأصل السفه الخفة والحركة، يقال: تسفهت الريح الشجر، أي: مالت به.

وينسحب وصف السفهاء على ناقصي الأهلية من اليتامىٰ والمجانين والصغار، وينسحب أيضاً على المبذرين من البالغين الأصحاء، والخطاب في الآية لكل من يصح خطابه من الأولياء والأوصياء في المجتمع.

والمراد من الأموال أموال السفهاء، بدليل قوله بعد ذلك ﴿وارزقوهم فيها﴾، وفي إضافتها إلىٰ ضمير المخاطبين إشارة إلى حق المجتمع في حفظ هذه الأموال وصيانتها، ففي حفظها وعدم تضييعها منفعة للأمة بأسرها، لأن ما في أيدي بعض أفرادها من الثروة يعود بالصالح على الجميع، فمن تلك الأموال ينفق أربابها ويستأجرون ويشترون ويتصدقون، ثم تورث عنهم إذا ما ماتوا، وتتوزع بين ورثتهم من أبناء المجتمع، وبهذا تتداولها أيدٍ كثيرة، وهذه إشارة لا أحسب أن حكيماً من

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح (٥١١٢).
(٢) فتح الباري ٩/١٦٤.

حكماء الاقتصاد سبق القرآن إلى بيانها، وقد أبعد جماعة جعلوا الإضافة لأدنىٰ ملابسة، لأن الأموال في يد الأولياء... وجماعة جعلوا الإضافة للمخاطبين؛ لأن الأموال من نوع أموالهم وإن لم تكن أموالهم حقيقة... وأبعد جماعة آخرون فجعلوا الإضافة حقيقية؛ أي: لا تؤتوا يا أصحاب الأموال أموالكم لمن يضيعها من أولادكم ونسائكم، وهذا أبعد الوجوه. وقارب ابن العربي إذ قال: لأن الأموال مشتركة بين الخلق تنتقل من يد إلىٰ يد، وتخرج من ملك إلىٰ ملك[1].

ويؤكد هذا المعنىٰ قوله تعالى بعد ذلك في وصف هذه الأموال:

﴿التي جعل الله لكم قياماً﴾ وفي قراءة (قيماً) والمعنىٰ واحد، كما جاء عوذاً بمعنىٰ عياذاً، أي: تقومون بها وتنتعشون[2].

قال ابن كثير رحمه الله: ينهىٰ سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال، التي جعلها الله للناس قياماً، أي: تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها، ومن هنا يؤخذ الحجر على السفهاء[3].

﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾ أي: اجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم، بأن تتجروا وتتربحوا حتىٰ تكون نفقاتهم من الأرباح لا من صلب المال[4].

وهذا إن وجدت الأرباح، وإلا فلا بد من الإنفاق عليهم من أموالهم، ولهذا ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿وارزقوهم فيها﴾ أي: منها[5].

﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ [٥] أي: قولاً جميلاً، لأن القول الجميل يؤثر في القلب ويزيل السفه.

أو: قولاً طيباً تطيب به أنفسهم وترتفع معنوياتهم، فمما لا شك فيه أن منع الإنسان من التصرف في ماله يدخل عليه الألم والحزن، ويخفف القول الطيب الجميل بعض ما يجده الإنسان في نفسه.

---

(١) التحرير والتنوير ٥/٢٣٥.
(٢) تفسير البيضاوي ٢/١٠.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٥٨.
(٤) تفسير أبي السعود ٢/١٤٥.
(٥) زاد المسير ٢/١٣.

تسليم الأموال إلى اليتامىٰ

ثم بينت الآيات كيف تسلم أموال اليتامىٰ لهم ووقته، بقول الله تعالى:

﴿وابتلوا اليتامىٰ﴾ أي: اختبروا عقولهم وذوقوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف في المال قبل البلوغ، وذلك بأن يدفع لليتيم ما يتصرف فيه حتىٰ تتبين حاله، وفيه دليل على جواز إذن الصبي العاقل في التجارة[1].

﴿حتىٰ إذا بلغوا النكاح﴾ أي: بلغوا مبلغ الرجال والنساء، لقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾[2].

والبلوغ للذكور والإناث بالاحتلام والسن، وتختص الإناث بالحيض والحبل، والسن عند جمهور العلماء خمس عشرة سنة، للحديث الشريف عن ابن عمر قال: عرضني رسول الله ﷺ يوم أحد في القتال، وأنا ابن أربع عشرة سنة، فلم يجزني، وعرضني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة، فأجازني[3].

والبلوغ عند الإمام مالك في رواية ابن القاسم، ثماني عشرة سنة للذكور والإناث، وعند الإمام أبي حنيفة ثماني عشرة سنة للغلام، وسبع عشرة سنة للإناث.

وبلوغ ابن عمر ليس من الضروري أن يكون معيار بلوغ عامة الناس.

﴿فإن آنستم منهم رشداً﴾ أي: أبصرتم وتبينتم منهم حسن تصرف في المال، من غير ضعف ولا تبذير.

﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ أي: سلموا إليهم أموالهم.

فتسليم المال إلى اليتيم يكون بشرطين: إيناس الرشد، والبلوغ، فإن وجد أحدهما دون الآخر لم يجز تسليم المال[4].

ودلت الآية على وجوب المبادرة إلى دفع المال عند تحقق الشرطين، وعدم التأخير عن ذلك؛ لأن الإيناس أول ما يتبادر من العلم.

---

(١) تفسير النسفي ٢/١١.

(٢) النور: الآية ٥٩.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة (١٨٦٨).

(٤) تفسير القرطبي ٥/٣٨.

ثم أكد تعالى وجوب تسليم المال إلى اليتيم، والمحافظة عليه قبل ذلك، فقال:

﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾ أي: لا تسارعوا إلى أكل أموال اليتامىٰ قبل أن يكبروا، وذلك بالإسراف في إنفاقها.

﴿ومن كان غنياً فليستعفف﴾ أي: ومن كان من الأولياء والأوصياء غنياً عن مال اليتيم، غير محتاج إليه، فليحترز عن أكله ولا يأخذ منه شيئاً.

﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ أي: فليأكل بقدر جهده الذي يبذله في حفظ مال اليتيم، وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس ومكانهم وزمانهم.

وهو ما ذهبت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها، فقد قالت في الآية: إنها نزلت في مال اليتيم، إذا كان فقيراً، أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف.

وفي رواية أخرىٰ: أنزلت في والـي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلح ماله[1].

وهذا يدل على أن الشريعة الإسلامية تحرص على حقوق جميع الناس، ولا تهمل حق أحد مهما كان. ثم أرشدت الآية الأوصياء والأولياء إلى الإشهاد على تسليم المال لليتيم، فإن ذلك يبعدهم عن تهمة الخيانة، ويدفع عنهم الخصومة:

﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ بأنهم قبضوها وتسلموها وبرأت عنها ذممكم. وهذا الإشهاد مستحب عند طائفة من العلماء، فإن القول قول الوصي لأنه أمين، وقالت طائفة: هو فرض، وهو ظاهر الآية، وإنما هو أمين للأب، ومن ائتمنه الأب لا يقبل قوله على غيره[2].

﴿وكفى بالله حسيباً﴾ [٦] أي: محاسباً، فهو سبحانه رقيب عليكم، كما مر في أول آيات السورة: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ فحاسبوا أنفسكم قبل أن يحاسبكم ربكم، ولا تتجاوزوا حدوده التي حدها لكم، جل وعلا.

تقرير المزيد من حقوق الضعفاء

انتعش الضعفاء ورفعوا رؤوسهم، وأخذوا يتطلعون في ظل الشريعة الإسلامية الجديدة، إلىٰ مزيد من حقوقهم المهدورة في المجتمعات الجاهلية، وها هي أم كُجَّة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٧٥).
(٢) تفسير القرطبي ٥/٤٥.

زوجة أوس بن ثابت الأنصاري، الذي توفي عنها وعن ثلاث بنات، تأتي إلى رسول الله ﷺ، تشكو إليه ما صنعه رجلان من أبناء عم زوجها، أخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، ويقولون: لا يعطىٰ إلا من قاتل على ظهورِ الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة. فذكرت أم كجة ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاهما فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كلاً ولا ينكأ عدواً، فقال عليه الصلاة والسلام: «انصرفا حتىٰ أنظر ما يحدث الله لي فيهن» فأنزل الله هذه الآية رداً عليهم وإبطالاً لقولهم[1]:

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ أي: من المال.

﴿وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر﴾ أي: سواء كان المال الذي تركه الميت قليلاً أم كثيراً.

﴿نصيباً مفروضاً﴾ [٧] أي: مقطوعاً لا بد لهم أن يحوزوه، فهو حق شرعي مقرر للوارث، بينت بعد ذلك آيات الميراث مقداره، كما سيأتي.

قال القرطبي رحمه الله: قال علماؤنا: في هذه الآية فوائد ثلاث، إحداها بيان علة الميراث، وهي القرابة، الثانية: عموم القرابة كيفما تصرفت من قريب أو بعيد، الثالثة: إجمال النصيب المفروض، وذلك مبين في آية المواريث، فكان في هذه الآية توطئة للحكم وإبطال لذلك الرأي الفاسد، حتىٰ وقع البيان الشافي[2].

ولما كانت الشريعة الإسلامية تجمع بين العدل اللازم المفروض، وبين الإحسان المستحب المندوب، توجهت الآيات إلى البالغين من الورثة، تحضهم على الإحسان للذين يحضرون قسمة الميراث من الأقارب واليتامىٰ والمساكين، الذين لا نصيب لهم في الميراث:

﴿وإذا حضر القسمة أولوا القربىٰ واليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾ أي: أعطوهم من الميراث شيئاً تطييباً لقلوبهم.

﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ [٨] أي: وقولوا لهم قولاً حسناً لا أذى فيه ولا منة.

---

(١) تفسير القرطبي ٥/٤٦.

(٢) تفسير القرطبي ٥/٤٦.

الجزاء من جنس العمل

وانتقلت الآيات من خطاب الورثة، إلى خطاب الأولياء والأوصياء والقضاة وكل من له صلة بقسمة المواريث، تعظهم وتذكرهم وتوصيهم بالضعفاء من الورثة، وتستثير شفقتهم عليهم وعاطفتهم نحوهم، لكي يحفظوا لهم حقوقهم:

﴿ولْيَخْشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً﴾ أي: أولاداً صغاراً.

﴿خافوا عليهم﴾ أي: خافوا عليهم من الفقر والضياع بعدهم، بسبب عدوان الأولياء والأوصياء عليهم.

﴿فليتقوا الله﴾ أي: فليتقوا الله بهؤلاء الصغار الضعفاء الذين ائتمنوا على حقوقهم وليشفقوا عليهم كما يشفقون على أولادهم الصغار، فالجزاء من جنس العمل، فقد يتعرض أولادهم إلىٰ مثل ما يتعرض له هؤلاء الأيتام، فكما يحبون أن يعامل أولادهم من بعدهم، عليهم أن يعاملوا هؤلاء الأيتام.

روى ابن جرير الطبري بسنده عن الشيباني قال: كنا بالقسطنطينية أيام مسلمة بن عبد الملك، وفينا ابن محيريز وابن الديلمي وهانىء بن كلثوم، فجعلنا نتذاكر ما يكون في آخر الزمان، فضقت ذرعاً بما سمعت، فقلت لابن الديلمي: يا أبا بشر بودي أنه لا يولد لي ولـدٌ أبداً، فضرب بيده على منكبي وقال: يا ابن أخي لا تفعل، فإنه ليست من نسمة كتب الله لها أن تخرج من صلب رجل، إلا وهي خارجة، إن شاء وإن أبىٰ، ثم قال: ألا أدلك على أمر إن أنت أدركته نجاك الله منه، وإن تركت ولدك من بعدك حفظهم الله فيك؟ قلت: بلىٰ، فتلا عند ذلك هذه الآية[1].

﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾ [٩] أي: عدلاً وصواباً، يحفظون فيه الحق لأصحابه من غير حيف أو جور، فإن حقوق اليتامىٰ وأموالهم شأنها في الإسلام خطير، وأكلها ذنب كبير.

﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامىٰ ظلماً﴾ أي: على وجه الظلم بغير حق.

﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ أي: إنما يأكلون في بطونهم ما يجر إلى النار ويؤول إليها يوم القيامة.

﴿وسيصلون سعيراً﴾ [١٠] أي: وسيدخلون يوم القيامة ناراً مسعرة موقدة.

---

(١) جامع البيان ٤/٢٧٢.

ميراث الآباء والأبناء

مهد قوله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون. . .﴾ لنزول آيات الميراث الثلاث، التي جمع الله تعالى فيها بإعجاز باهر، بين الإحكام والتفصيل، وقد فصل فيها سبحانه تفصيلاً بديعاً دقيقاً أنصبة الورثة، من تركة المتوفى، بإحكام وإتقان باهر.

وقد ذكروا في سبب نزول آيات المواريث، أن مستضعفين آخرين أتوا إلى النبي ﷺ، لكي ينصفهم ويدفع عنهم ظلم الجاهلية وقسوتها، فقد أخرج أحمد وأصحاب السنن من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في أحد، وإن عمهما أخذ مالهما، قال: «يقضي الله في ذلك» فنزلت آية الميراث، فأرسل إلى عمهما فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن، فما بقي فهو لك».

﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ وما أجملها من وصية! فهو سبحانه أرحم بأولادنا منا، أي يأمركم الله بالعدل في أولادكم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكر دون الإناث، فأمر تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث.

وقوله: ﴿أولادكم﴾ يشمل كل ولد موجود ولو كان جنيناً في بطن أمه[1].

﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي: إذا اجتمع الولد والبنتان كان له سهمان وللبنتين سهمان، وأما في حال الانفراد فالابن يأخذ المال كله، والبنتان تأخذان الثلثين، دل عليه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿فإن كن نساءً﴾ أي: كانت الأولاد نساء خلصاً، بنات ليس معهن ابن.
﴿فوق اثنتين﴾ أي: زائدات على اثنتين.
﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾ أي: ثلثا ما ترك الميت من المال.
﴿وإن كانت واحدة﴾ أي: كان للميت بنت واحدة.

﴿فلها النصف﴾ أي: نصف ما ترك الميت، إن لم يكن معها ابن، فإن كان معها ابن فلها الثلث وللابن الثلثان.

وإذا كان الثلث نصيب البنت الواحدة، فالثلثان نصيب البنتين، وسيأتي في آخر

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٢٦٢.

السورة، عند آية الميراث الثالثة، أن للأخت عند عدم الوالد والولد نصف الميراث، وللأختين الثلثين، والبنتان أمس رحماً بالميت من الأختين؛ ولهذا أوجب لهما أكثر العلماء الثلثين.

وجاء نصيب الولد ضعف نصيب أخته في الميراث، منسجماً مع عدالة الشريعة الإسلامية وواقعيتها؛ إذ كلفت الشريعة الإسلامية الذكر بمسؤوليات مادية أكثر من الأنثىٰ، فالأنثىٰ في الشريعة الإسلامية لا تكلَّف بالإنفاق على أحد، بل أوجب الإسلام نفقتها إذا لم يكن لها مال على أقرب الناس منها، ولم يكلفها بالعمل والاكتساب، فالبنت نفقتها على والدها، والزوجة على زوجها، والأم على أولادها، والأخت على إخوتها، وإذا ما تزوجت أخذت المهر، بينما إذا تزوج أخوها كلف بدفع المهر والإنفاق على الأسرة.

﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك﴾ أي: لكل واحد من والدي المتوفىٰ سدس ما ترك.

﴿إن كان له ولد﴾ أي: إن كان للمتوفىٰ ولد ذكراً كان أو أنثىٰ.

﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾ أي: ثلث ما ترك المتوفىٰ.

وسكتت الآية عن بيان نصيب الوالد في هذه الحالة؛ لأنه يأخذ الباقي من التركة؛ إذ هو داخل في حالته المقررة في قوله تعالى: ﴿وورثه أبواه﴾ فبيان نصيب أحدهما يدل على أن الباقي من التركة للثاني، وهو ما جاء مصرحاً به في الحديث النبوي الشريف: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأَوْلى رجل ذكر»[1].

وينقص نصيب الأم من الثلث إلى السدس إذا كان للميت إخوة، اثنان من الأخوة والأخوات فأكثر، لقوله تعالى:

﴿فإن كان له إخوةٌ فلأمه السدس﴾ وليس للأخوة في هذه الحالة شيء، فالباقي يأخذه الأب، كرجل مات عن أبوين وأخوين، فإن للأم السدس، والباقي ـ وهو خمسة أسداس ـ للأب، سدس بالفريضة، والباقي بالتعصيب، قال قتادة: وإنما حجب الأخوة الأم من غير أن يرثوا مع الأب شيئاً، معونة للأب؛ لأنه يقوم بشأنهم وينفق عليهم، دون الأم[2].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الفرائض (٦٧٣٢).
(٢) تفسير الخازن ٢/٢٦.

﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ أي: هذه الفروض والسهام، تعطىٰ لأصحابها بعد قضاء دين المتوفى، وإنفاذ وصيته التي أوصى بها من ثلث ما ترك.

وذكر الوصية مقدم على الدين في اللفظ لا في الحكم؛ لأن كلمة(أو) لا تدل على الترتيب، والدين يبدأ به قبل تنفيذ الوصية؛ لأنه حق سابق في مال الميت، فالمدين لا يملك من ماله إلا ما هو فاضل عن وفاء دينه.

قال ابن كثير رحمه الله: أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة، وروى أحمد والترمذي عن علي بن أبي طالب قال: إنكم تقرؤون: ﴿من بعد وصية يوصي بها أو دين﴾ وإن رسول الله ﷺ قضىٰ بالدين قبل الوصية[1].

﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً﴾ أي: الذين ذكر الله فروضهم في الآية، هم آباؤكم وأبناؤكم، فالتزموا بما فرض الله فيها، فإنكم لا تدرون أيهم أنفع لكم، فقد ينفع الله الوالد بدعاء ولده الصالح له بعد موته، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[2].

وقد ينفع الله الولد بصلاح والده يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين﴾[3].

﴿فريضة من الله﴾ أي: ما قدر من الفرائض في المواريث فريضة واجبة أوجبها الله تعالى.

﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ [١١] أي: في كل ما قدر وشرع، فالتزموا بشرعه وتمسكوا بحكمه.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٦٣.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الوصية (١٦٣١).
(٣) الطور: الآية ٢١.

ميراث الزوجين

ثم بين سبحانه التوارث بسبب الزواج وعصمة النكاح، وما كانوا في الجاهلية يتوارثون به، فقال:

﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد﴾ أي: إن لم يكن لهن فرع وارث من بطونهن، ذكر أو أنثىٰ، منكم أو من غيركم.

﴿فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن﴾ أي: من المال.

﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ أي: من بعد وفاء ما عليهن من دين، وتنفيذ وصاياهن. وهذا يدل على أن للمرأة في الإسلام حقاً في الإيصاء والتعامل بالدين كالرجل.

﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد﴾ أي: للزوجات ربع ما ترك الزوج المتوفى إذا لم يكن له ولد، ذكر أو أنثىٰ، منهن أو من غيرهن.

﴿فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم﴾ أي: من المال، وهو أيضاً:

﴿من بعد وصية توصون بها أو دين﴾.

والجدير بالذكر أن الزوجة الواحدة لها الربع أو الثمن، ولو كن أربع زوجات يشتركن في الربع أو الثمن، وأن اسم الولد يطلق على الذكر والأنثىٰ، ولا فرق بين الولد وولد الابن.

ميراث الأخوة من الأم

والأخوة من الأم لهم نصيب في الميراث إذا لم يكن للمتوفى والد أو ولد، قال تعالى:

﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة﴾ أي: تورث كلالة أيضاً، والكلالة اسم مصدر من الكلال، وهو التعب والإعياء، والمراد به الميت الذي يموت من غير والد ولا ولد.

﴿وله أخ أو أخت﴾ أي: وللمتوفىٰ أخ من أم أو أخت من أم، واكتفىٰ ببيان حكم الرجل عن المرأة، لدلالة العطف على اشتراكهما فيه.

﴿فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾

لأنهم يستحقون الميراث بقرابة الأم، وهي لا ترث بأكثر من الثلث؛ ولهذا لا يفضل الذكر منهم على الأنثى[1].

﴿من بعد وصية يوصىٰ بها أو دين﴾ وإنما تكرر ذكر الوصية والدين، لاختلاف الموصين والمَدينين، وهذا يدل على اهتمام الشريعة الإسلامية بحقوق الناس، وحرصها على وصول أصحاب الحقوق إلى حقوقهم، ولهذا شرط الله تعالى على الموصين ألا يدخلوا الضرر بوصاياهم على الورثة، فقال:

﴿غير مضار﴾ أي: يوصي بها غير مدخل الضرر على الورثة، كأن يوصي بأكثر من الثلث، أو يوصي بوفاء دين ليس عليه، أو يقر بماله أو أكثره لأجنبي ويترك الورثة[2]، أو يقر به لبعض الورثة ليحرم الآخرين، وكل ذلك إضرار محرم، مخالف لشرع الله تعالىٰ.

﴿وصية من الله﴾ أي: هذه الأحكام وصية من الله تعالى عهد بها إليكم، فالتزموا بها.

﴿والله عليم﴾ أي: بمصالح عباده.

﴿حليم﴾ [١٢] أي: ذو حلم وأناة، لا يعاجلهم بالعقوبة حتى يرجعوا ويتوبوا.

﴿تلك حدود الله﴾ أي: هذه الأحكام التي سبق بيانها، شرع الله تعالى الذي شرعه لكم فهي بمثابة الحدود المحددة للمكلفين، لا يجوز لهم تجاوزها.

﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ أي: ومن التزم بما شرع الله تعالى وبما سن له رسول الله ﷺ، ورضي بذلك.

﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم﴾ [١٣] وجاء بعد هذا الترغيب في التمسك بشريعة الله تعالى الترهيب والوعيد لمن أعرض عنها:

﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ أي: ومن يخالف حكم الله تعالى وشرعه.

﴿ويتعد حدوده﴾ أي: ويتجاوز شرعه سبحانه إلى ما يشرعه البشر من الشرائع والقوانين الوضعية.

---

(١) تفسير النسفي ٢/ ٣٠.

(٢) تفسير الخازن ٢/ ٣٠.

﴿يدخله ناراً خالداً فيها﴾ أي: ماكثاً فيها أبداً.

ولعل إفراد اللفظ هنا في آية الترهيب، وجمعه هناك في آية الترغيب، للإشعار بأن الخلود في دار الثواب بصيغة الاجتماع أجلب للأنس، كما أن الخلود في دار العذاب بصيغة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة[1].

﴿وله عذاب مهين﴾ [١٤] لهوانه على الله تعالى.

سلامة العرض

وكما حفظ الإسلام للإنسان حقوقه المادية، حفظ له أيضاً حقوقه المعنوية، وأهمها سلامة عرضه، وصيانته عن القدح والذم، ولهذا حرم الزنى، وحرم أيضاً قذف الإنسان بالزنى واتهامه به، وشرط لثبوت جريمة الزنى شهادة أربعة شهود عدول. وشرع سبحانه في أول الأمر عقوبة للزناة بقوله:

﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ أي: يفعلن الفاحشة، وهي جريمة الزنى، سميت بالفاحشة لزيادة قبحها.

﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أي: اطلبوا شهادة أربعة من المسلمين، والخطاب للحكام والقضاة، فلا تثبت جريمة الزنى إلا بشهادة أربعة شهود. أو بإقرار الزاني أربع مرات في أربعة مجالس.

﴿فإن شهدوا﴾ أي: شهدوا عليهن بالزنى.

﴿فأمسكوهن في البيوت﴾ أي: احبسوهن في البيوت، فلا يخرجن منها.

﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ أي: حتى يستوفي الموت أرواحهن.

ففي الآية تهويل للموت، وتصوير له في صورة من يتولى قبض الأرواح.

فالمرأة الزانية تحبس في البيت، وتحمل على الإقامة الدائمة فيه، وتمنع من الخروج والتسكع في الشوارع والطرقات، فلا يتعرض لها أحد، ولا تتعرض لأحد.

وقد شرع هذا الحكم أولاً قبل تشريع حد الزنى، ولهذا قال تعالى يشير إلى أنه حكم مؤقت:

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/١٥٤.

﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ [١٥] أي: يشرع لهن حكماً خاصاً يبين فيه كيفية معاملتهن. وأما الرجال الزناة فشرع لهم سبحانه أولاً عقوبة الأذى:

﴿واللذان يأتيانها منكم﴾ أي: واللذان يفعلان الفاحشة، والمراد بهما صنفا الرجال المتزوجين وغير المتزوجين، أو اللذان يفعلان فاحشة اللواط.

﴿فآذوهما﴾ أي: بالشتم والتعيير، والضرب بالنعال.

﴿فإن تابا وأصلحا﴾ أي: تابا عن الفاحشة، وتركا ما كانا عليه وصلحت أعمالهما وحسنت.

﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي: فتوقفوا عن إيذائهما، أو أعرضوا عنهما بالإغماض والستر.

﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾ [١٦] أي: يقبل توبة التائب ويرحمه.

وهذا أيضاً قبل تشريع حد الزنى بقوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾[1] وهذا إذا كانا غير متزوجين، أمّا إذا كانا متزوجين فعقوبتهما الرجم كما ثبت في السنة الصحيحة من قوله وفعله ﷺ.

المسارعة إلى التوبة

ومن المعلوم أن تشريع العقوبات لا يكفي وحده لتطهير المجتمع من المجرمين، ولا بدّ أن ترافقه التربية والتوجيه والإرشاد.

ولهذا اتجهت الآيات تخاطب العصاة والمجرمين تحثهم على التوبة وترغبهم فيها:

﴿إنما التوبة على الله﴾ أي: إن قبول التوبة كالأمر المحتوم على الله تعالى بمقتضى وعده بقبول توبة التائبين.

﴿للذين يعملون السوء بجهالة﴾ أي: متلبسين بجهالة، وهي السفه والطيش والجهل، فهي وصف كاشف لأن ارتكاب القبح يدعو إليه السفه والجهل، قال قتادة:

---

(١) النور: الآية ٢.

أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل شيء عُصي الله به فهو جهالة، عمداً كان أو غيره[1].

﴿ثم يتوبون من قريب﴾ أي: يتركون الذنب ويتوبون عنه بعد فعله بزمن قريب، ولا يصرون عليه، كما قال تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾[2].

ويمتد زمن التوبة إلى وقت الاحتضار وانتهاء الحياة، ولكن الآية تحث على المبادرة إلى التوبة وعدم الإصرار على الذنب لأن الإنسان لا يدري متى ينزل به الموت وينتهي أجله، فقد تفوته التوبة ويموت مصراً على المعصية، وقد تدمن النفس على المعصية فلا تستطيع تركها والتخلص منها.

وفي الآية إشارة أيضاً إلى قصر الحياة وقرب الموت، فكل آت قريب، وعمر الإنسان مهما طال قليل، والموت منه قريب.

﴿فأولئك يتوب الله عليهم﴾ أي: يقبل سبحانه توبتهم بفضله ورحمته فهي عِدَةٌ كريمة من الله عز وجل.

﴿وكان الله عليماً﴾ بالتائبين المخلصين في توبتهم.

﴿حكيماً﴾ [١٧] في العفو عنهم وقبول توبتهم.

﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾ أي: ولا توبة للذين يعملون السيئات ويصرون عليها.

﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ فهي توبة اليأس، وهي غير مقبولة، كتوبة فرعون عندما أدركه الغرق ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾[3].

﴿ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ أي: ولا توبة أيضاً للذين يموتون على الكفر،

---

(١) تفسير الخازن ٢/٣٥.

(٢) آل عمران: الآية ١٣٥.

(٣) يونس: الآيتان ٩٠ ـ ٩١.

فكما لا يقبل الله توبة الكافر يوم القيامة، فلا يقبل أيضاً توبة المصريـن حين ينزل بهم الموت.

﴿أولئك﴾ أي: المذكورون من الفريقين.

﴿أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ [١٨] أي: هيأنا لهم عذاباً مؤلماً موجعاً.

تحريم مظالم جاهلية

وتابعت الآيات تقرر الحقوق وتدفع الظلم عن المظلومين والمستضعفين:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ أي: لا يحل لكم أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تؤخذ المواريث، وهن كارهات لذلك، وهي من صور الظلم التي كانت المرأة تعاني منه في الجاهلية.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، وهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك[١].

ثم أضافت الآيات دفع مظلمة جاهلية أخرى كانت تصدر من الأزواج الذين يسيئون معاملة زوجاتهم، فوجهت الخطاب إليهم:

﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ أي: لا تضاروهن في العشرة لتترك لك صداقها أو بعضه، أو حقاً من حقوقها عليك أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والإضرار[٢].

﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ أي: إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن، كإيذاء الزوج وأهله، وقيل: الفاحشة هي الزنى، فالمراد إذا نشزت أو زنت حل للزوج أن يسألها الخلع بما أعطاها من المهر أو ببعضه.

وبعد أن نهاهم سبحانه عن ظلم المرأة والإضرار بها، أمرهم تعالى بالمعاشرة الحسنة والمعاملة الطيبة، فقال:

---

(١) صحيح البخاري في التفسير ٤٥٧٩.

(٢) مختصر ابن كثير ١/٣٦٨.

﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي: بحسب ما أمر الله تعالى وسن رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾[1] وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يتودد إليها بذلك، قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني، فقال: «هذه بتلك» ويجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها[2]...

ومن حسن العشرة أيضاً الصبر عليهن واحتمال ضعفهن وتقصيرهن.

﴿فإن كرهتموهن﴾ أي: سئمتم صحبتهن فلا تفارقوهن واصبروا على معاشرتهن، فالإسلام حريص على بقاء الأسرة، ولا يشجع الطلاق.

﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [١٩] فقد تكره النفوس ما في عاقبته خير كثير.

ففي الآية إرشاد إلى التأني والتروي وعدم الاغترار بالمظاهر الخادعة، قال ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة ـ أي لا يبغض ـ إن كره منها خلقاً رضي منها آخر»[3] ومر معنا وصيته ﷺ بالنساء وقوله: «استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، إن ذهبت تقيمه كسرته...».

وحرم الله أيضاً على الأزواج استرداد شيء من مهر المرأة، إذا أرادوا طلاقها، فقال:

﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ أي: إن أردتم تطليق امرأة وتزوج أخرى.

﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً﴾ أي: مالاً كثيراً.

﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ أي: لا تأخذوا من القنطار شيئاً.

---

(١) البقرة: الآية ٢٢٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٦٩.

(٣) صحيح مسلم في الرضاع ١٤٦٩.

﴿أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ [٢٠] وهو استفهام إنكار وتوبيخ، والبهتان: اتهام البريء، وكان أحدهم إذا أراد امرأة جديدة رمى زوجته بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ويتمكن بذلك من الزواج بغيرها.

وتابعت الآيات تستعظم هذا الذنب وتوبخ فاعليه:

﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أي: كيف تأخذون المهر وقد تم اجتماع بعضكم إلى بعض، وخلا بعضكم إلى بعض، فإن حسن العهد من الإيمان، والله يسأل عن صحبة ساعة، أبعد أن صحبتها وعاشرتها تأخذ مهرها وتظلمها حقها؟!

أخرج الحاكم والبيهقي في الشعب عن عائشة قالت: «جاءت عجوز إلى النبي ﷺ، فقال: كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: يا عائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»[١].

وكلمة (أفضى) تدل على عمق الصلة بين الزوجين، وتذكير للزوج بما كان بينه وبين زوجته قبل أن تسوء العلاقة بينهما، فهي ترسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتهما فترة من الزمن، وفي كل اختلاجة حب إفضاء، وفي كل نظرة ود إفضاء، وفي كل لمسة جسم إفضاء، وفي كل اشتراك في ألم وأمل إفضاء[٢]...

﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ [٢١] أي: عهداً مؤكداً شديداً عند عقد النكاح، فللصحبة السالفة حرمة أكيدة، فراعوها وأوفوا بموجب ميثاقها.

تحريم الزواج من زوجات الآباء

مر معنا في أول آية في السورة أن المرأة خلقت من جزء من أجزاء الرجل، وأن هذا أصل الميل الفطري عند الرجل والمرأة إلى بعضهما فكل واحد منهما زوج للآخر، ولهذا فإن الزواج حق من الحقوق الطبيعية لكل من الرجل والمرأة ومطلب ضروري لهما.

---

(١) فتح الباري ١٠/٤٣٦.

(٢) في ظلال القرآن ١/٦٠٦.

وقد شرعه الله تعالى في الإسلام وحث عليه النبي ﷺ قولاً وفعلاً، واهتمت الآيات الكريمة به، فبينت كثيراً من أحكامه ومن هذه الأحكام التي بينتها آيات سورة النساء، بيان المحرمات في النكاح، وبدأت الآيات أولاً بتحريم الزواج من أزواج الآباء الذي كان سائداً في الجاهلية، وكان مظهراً من مظاهر الظلم الذي كانت المرأة تعاني منه كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً. . .﴾ وكثيراً ما كان الولد الكبير للمتوفى يتزوج بزوجة أبيه حتى أنزل الله تعالى قوله الكريم:

﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ أي: لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء، فإنهن محرمات عليكم، وفسر بعضهم النكاح بالوطء، وعليه تكون موطوءة الأب بزواج أو بزنى محرمة على الابن.

وتشمل كلمة (الآباء) الأجداد مهما علوا، فنساؤهم محرمات على أحفادهم.

﴿إلا ما قد سلف﴾ أي: لكن لا تؤاخذون على ما قد سلف ومضى قبل نزول التحريم، مما يدل على أنه كان سائداً في الجاهلية.

قال ابن كثير رحمه الله: يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكرمة لهم، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده ـ أي من قبل ولده ـ حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه[1].

وروى ابن جرير الطبري بسنده إلى عكرمة أنه قال: نزلت في أبي قيس ابن الأسلت، خلف على أم عبيد بنت ضمرة، كانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خلف على بنت أبي طلحة بن عبد العزىٰ، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة بنت الأسود، وكانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها صفوان بن أمية، وفي منظور بن رباب، وكان خلف على مليكة ابنة خارجة، وكانت عند أبيه رباب بن سيّار[2].

﴿إنه كان فاحشة﴾ أي: إن نكاح زوجة الأب فاحشة؛ لأن زوجة الأب بمنزلة الأم، ونكاح الأمهات حرام، ولهذا سماه فاحشة لأنه من أقبح المعاصي.

﴿ومقتاً﴾ أي وكان مقتاً، والمقت: أشد الغضب، فهو يورث المقت من الله تعالى، ويورث أيضاً مقت الولد لأبيه بعد أن يتزوج امرأته.

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٧٠.

(٢) تفسير الطبري ٤/ ٣١٨.

﴿وساء سبيلاً﴾ [٢٢] أي: وطريقاً سيئاً لقضاء الشهوة، كما قال في الزنى: ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾[1] فمن تعاطاه بعد هذا البيان، فقد ارتد عن دينه، ويعامل معاملة المرتد، وقد روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن البراء بن عازب: عن خاله أبي بردة: أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده، أن يقتله ويأخذ ماله.

المحرمات في الزواج

ثم أضافت الآيات بيان المحرمات في النكاح بقوله تعالى:

﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾ أي اللاتي ولدنكم مهما علون كأم الأب وأم الأم.

﴿وبناتكم﴾ أي: اللاتي من فروعكم مهما نزلت كبنت الابن وبنت البنت.

﴿وأخواتكم﴾ جمع أخت، وهي كل امرأة شاركتك في أصلك فيشمل التحريم الأخوات الشقيقات من الأب والأم، والأخوات من الأب، والأخوات من الأم.

﴿وعماتكم﴾ جمع عمة، وهي كل امرأة شاركت أباك في أصله وهن جميع أخوات الأب وأخوات آبائه وإن علون، وقد تكون العمة من جهة الأم كأخت أبي الأم.

﴿وخالاتكم﴾ جمع خالة، وهي كل امرأة شاركت الأم في أصلها كما في العمات.

﴿وبنات الأخ وبنات الأخت﴾ أي: مهما نزلن.

فهذه الأصناف السبعة محرمة بالنسب، وحرمتهن مؤبدة لا تحل بوجه من الوجوه.

وأما المحرمات بالسبب فهن:

﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ فكل امرأة أرضعتك محرمة عليك وهي أمك في الرضاعة، وبناتها محرمات عليك وهن أخواتك في الرضاعة.

والجدير بالذكر أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، وذكر سبحانه الأم

---

(١) الإسراء: الآية ٣٢.

والأخت ليدل على تحريم جميع الأصول والفروع، وفي الحديث الشريف عن ابن عباس قال: قيل للنبي ﷺ: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخي من الرضاعة»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة»[2].

فكل من حرمت بسبب الولادة والنسب حرم نظيرها بسبب الرضاعة، وإنما سمى الله المرضعات أمهات لأجل الحرمة، فيحرم عليه نكاحها ويحل له النظر إليها والخلوة بها والسفر معها، ولا يترتب عليه جميع أحكام الأمومية من كل وجه، فلا يتوارثان ولا تجب على كل واحد منهما نفقة الآخر[3].

ولا يتعدى التحريم إلى أحد من قرابة الرضيع، فليست أخته من الرضاعة أختاً لأخيه، ولا بنتاً لأبيه، إذ لا رضاع بينهم[4].

والرضاع المحرم هو الذي يقع في السنتين الأوليين من عمر الرضيع، وعند أبي حنيفة يمتدّ إلى انتهاء سنتين ونصف.

﴿وأمهات نسائكم﴾ فمن تزوج امرأة حرمت عليه أمها وجميع جداتها من قبل الأب والأم، ويثبت التحريم بمجرد العقد عليها دخل بها أو لم يدخل.

﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ أي ويحرم عليكم بنات نسائكم اللاتي رُبِّين في بيوتكم، وهذا بيان لعلة التحريم وليس شرطاً له، فبنت الزوجة تحرم على الزوج مطلقاً سواء نشأت في حجره أم لا.

﴿من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾ أي: بشرط أن يتم الدخول بأمها.

وأما إذا طلقها قبل الدخول بها أو ماتت فتحل له بنتها لقوله تعالى:

﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾ أي: لا حرج عليكم أن تتزوجوا بناتهن إذا فارقتموهن بطلاق أو موت.

﴿وحلائل أبنائكم﴾ أي: ويحرم عليكم أزواج أبنائكم، جمع حليلة، والرجل

---

(١) صحيح البخاري في النكاح ٥١٠٠.
(٢) المرجع نفسه ٥٠٩٩.
(٣) تفسير الخازن ١/٤٢.
(٤) فتح الباري ٩/١٤١.

حليل، لأن كل واحد منهما يحل للآخر، أو يحل فراش الآخر من الحل أو من الحلول.

﴿الذين من أصلابكم﴾ أي: الذين ولدوا منكم فعلاً، وهم أولادكم في النسب، وخرج بذلك الذين كانوا يتبنونهم، وقد أمر الله تعالى الرسول ﷺ أن يتزوج السيدة زينب بعد أن طلقها زيد بن حارثة، وكان ﷺ قد تبناه وأنزل سبحانه في ذلك قوله الكريم: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً﴾[1].

ودلت الآية على أنه يحرم على الرجل أزواج أبنائه وأبناء أبنائه مهما نزلوا من النسب والرضاع بنفس العقد، ولا يشترط الدخول.

﴿وأن تجمعوا بين الأختين﴾ أي: وحرم عليكم الجمع بين الأختين في النكاح.

فالجمع بين الأختين في التزويج حرام بالإجماع، سواء كانتا شقيقتين أم من أب أم من أم، وسواء النسب والرضاع[2].

وأضاف النبي ﷺ تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها فعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجمعُ بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها»[4].

وورد في رواية علة التحريم، فعند ابن حبان عن ابن عباس: نهى أن تزوج المرأة على العمة والخالة، وقال: «إنكن إذا فعلتن ذلك قطعتن أرحامكن» إذ يحدث بينهن ما يحدث عادة بين الضرائر من الكراهية والقطيعة.

﴿إلا ما قد سلف﴾ أي: إلا ما مضى قبل التحريم، فهو مغفور لكم، ولهذا قال تعالى بعده:

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ [٢٣].

---

(١) الأحزاب: الآية ٣٧.
(٢) فتح الباري ٩/١٦٠.
(٣) صحيح البخاري في النكاح ٥١٠٨.
(٤) المرجع نفسه ٥١٠٩.

﴿والمحصنات من النساء﴾ أي: وحرم عليكم المتزوجات من النساء، وحرمتهن مؤقتة ما دام النكاح قائماً، فإذا انفسخ بطلاق أو موت، وانقضت عدتهن، حل الزواج منهن، فالإسلام يبيح تعدد الزوجات ويحرم تعدد الأزواج حرصاً على سلامة الأنساب.

﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾ أي: إلا ما ملكتم من الأسيرات المتزوجات، فإذا أذن ولي الأمر في استرقاقهن، فيجوز لمن يملكها بعد القسمة أن يطأها بملك اليمين بعد أن يستبرئها بحيضة ليتأكد من خلو رحمها عن حمل سابق، فإذا ما حملت وولدت أصبحت أم ولد يحرم بيعها، وتصبح حرة بعد موت سيدها. فالتسري بملك اليمين من الأسباب المشروعة للوصول إلى الحرية. وهو أيضاً من أسباب منع الزنى وانتشار الفواحش في المجتمع كما سيأتي معنا.

﴿كتاب الله عليكم﴾ أي: كتب الله عليكم تحريم هذه الأصناف من النساء كتاباً، وقرىء بالرفع، ومعناه هذه فرائض الله عليكم فالتزموا بها.

تحريم نكاح المتعة

﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ أي: أحل الله لكم ما سوى المحرمات المذكورات.

﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين﴾ أي: أحل الله لكم أن تطلبوا بأموالكم غير ما ذكر من النساء متزوجين.

﴿غير مسافحين﴾ أي: غير زانين.

والسفاح: الزنى، من السفح وهو الصب، وسمي الزنى سفاحاً لأن الزاني لا غرض له سوى صب النطفة[1].

ثم بين سبحانه أن الزوجة تستحق المهر كله إذا استمتع زوجها بها، فقال:

﴿فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾ أي: فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح فآتوهن مهورهن، فإذا جامعها مرة واحدة فقد وجب المهر كاملاً إن كان مسمى، أو مهر مثلها إن لم يسم[2].

---

(١) تفسير الخازن ٢/٥٠.

(٢) تفسير القرطبي ٥/١١٩.

ولا يجوز أن تحمل الآية على جواز المتعة لأن رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة وحرمه[1].

ونكاح المتعة هو أن ينكح الرجل المرأة بمال معلوم إلى أجل معين، ليلة أو ليلتين أو أسبوعاً، بثبوت أو غير ثبوت، ويقضي منها وطراً ثم يتركها. والإشهاد على العقد مستحب، وإذن الولي غير معتبر، ولا ميراث بينهما في هذا النكاح، وعلى المرأة الاعتداد بعد انتهائه بحيضتين كاملتين، فإن كانت لا تحيض فعدتها خمسة وأربعون يوماً، والفراق يكون بانتهاء المدة، أو أن يهب المتمتع المرأة ما بقي منها، والنسب فيه ثابت لأنه - بزعمهم - عقد مشروع غير منسوخ[2]. وأبيح نكاح المتعة في أول الأمر بالسنّة في الغزو البعيد والسفر الطويل إذ يشتد الشبق ويقل الصبر وتُخشى الفتنة، وهم حديثو عهد بإباحية وكفر، ثم حرم بالسنّة أيضاً، فلا علاقة للآية بنكاح المتعة البتة، إنما هو نكاح أبيح بالسنة أولاً ثم نسخ حكم الإباحة وحرم بالسنة أيضاً، وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين.

قال ابن الجوزي رحمه الله: وقد تكلف قوم من مفسري القراء، فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلُّفٌ لا يُحتاج إليه، لأن النبي ﷺ أجاز المتعة، ثم منع منها، فكان قوله منسوخاً بقوله، وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة، لأنه تعالى قال فيها: ﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ فدل ذلك على النكاح الصحيح، قال الزجاج: ومعنى قوله: ﴿فما استمتعتم به منهن﴾ فما نكحتموهن على الشريطة التي جرت، وهو قوله: ﴿محصنين غير مسافحين﴾ أي: عاقدين التزويج ﴿فآتوهن أجورهن﴾ أي: مهورهن، ومن ذهب في الآية إلى غير هذا، فقد أخطأ، وجهل اللغة[3].

وقال الشيخ الآلوسي رحمه الله: هذه الآية لا تدل على الحل، والقول بأنها نزلت في المتعة غلط، وتفسير البعض لها بذلك غير مقبول، لأن نظم القرآن الكريم يأباه، حيث بين سبحانه أولاً المحرمات، ثم قال عز شأنه: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم﴾ وفيه شرط بحسب المعنى، فيبطل تحليل الفرج وإعارته، ثم قال

---

(١) المرجع نفسه ٥/١٣٠.

(٢) نكاح المتعة في الإسلام حرام.

(٣) زاد المسير ٢/٥٤.

جل وعلا: ﴿محصنين غير مسافحين﴾ وفيه إشارة إلى النهي عن كون القصد مجرد قضاء الشهوة وصب الماء واستفراغ أوعية المني، فبطلت المتعة بهذا القيد، لأن مقصود المتمتع ليس إلا ذاك[1].

وفي الحديث الشريف عن سَبْرة الجهني أنه كان مع رسول الله ﷺ - وفي رواية عام الفتح -، فقال: «يا أيها الناس إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخلِّ سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً»[2].

وعن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ نهى عن مُتعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية[3].

﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾ أي: لا حرج عليكم فيما يتم عليه الاتفاق والتراضي بين الزوجين بعد تسمية المهر، كأن تحط عنه بعضه، أو تهب له كله، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ أو يزيد لها على مقداره، أو فيما تراضيا به من مقام أو فراق.

﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ [٢٤].

حقوق الزوجات المملوكات

ولما كان الزواج حقاً من حقوق الإنسان مهما كان لونه أو جنسه أو مستواه المادي، أرشدت الآيات الرجال الفقراء الذين لا قدرة لهم على مهور النساء الحرائر والإنفاق عليهن، إلى الزواج من النساء المملوكات، فالزواج منهن أقل كلفة وأخف مؤونة من الزواج بالحرائر.

ويحقق هذا فوائد اجتماعية كثيرة، إذ يؤدي إلى إحصان كثير من الشباب والفتيات في المجتمع، ويحول دون انحدارهم إلى دركات الانحلال الأخلاقي وممارسة الفواحش، كما يؤدي إلى قيام كثير من الأسر، وإزالة العوائق المادية التي

---

(١) روح المعاني ٥/٦.
(٢) صحيح مسلم في النكاح ١٤٠٦.
(٣) المرجع نفسه ١٤٠٧.

تعوق قيامها، فهو من محاسن نظام الرق الإسلامي إذا التزم الناس بضوابطه وقيوده الشرعية. قال تعالى:

﴿ومن لم يستطع منكم طولاً﴾ أي: فضلاً وسعة، وهو الغنى الذي يتمكن صاحبه من المهر والنفقة، وسمي الغنى طولاً لأنه ينال به من المراد ما لا ينال مع الفقر[1].

﴿أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ أي: أن يتزوج الحرائر المسلمات.

﴿فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ أي: فليتزوج من الإماء المؤمنات، والفتيات: الجواري المملوكات، جمع فتاة، أطلق عليهن الفتيات تكريماً لهن، وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي»[2].

والتقييد بالمؤمنة للاستحباب بدليل أن الإيمان ليس بشرط في الحرائر اتفاقاً، إذ يجوز نكاح الحرة الكتابية، قال تعالى: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[3].

قال ابن عباس: ومما وسع الله على هذه الأمة نكاح الأمة اليهودية والنصرانية وإن كان موسراً[4]. وذهب بعضهم إلى أن التقييد بالمؤمنة شرط فلا يجوز التزوج بالأمة الكتابية.

﴿والله أعلم بإيمانكم﴾ أي: فاكتفوا بظاهر الإيمان، فإنه سبحانه العالم بالسرائر، ورب أمة مؤمنة تفضل حرة.

﴿بعضكم من بعض﴾ أي: كلكم من نفس واحدة، كما مر معنا في أول آيات السورة فالأحرار والأرقاء من أصل واحد.

---

(١) تفسير الخازن ٢/٥٢.
(٢) صحيح مسلم في الألفاظ ٢٢٤٩.
(٣) المائدة: الآية ٥.
(٤) تفسير النسفي ٢/٥٣.

ولا يخفى ما في الآية من تشجيع على نكاح الإماء عند الضرورة، فقد كانوا يستنكفون عن ذلك ويفتخرون بالأحساب والأنساب، ولا التفات إلى شيء من ذلك في الإسلام، لأن التقوى أساس التفاضل فيه.

والإسلام يحفظ حقوق جميع الناس، ولا يهدر حق أحد على حساب غيره.

ولهذا شرط لصحة نكاح المملوكات إذن سادتهن، قال تعالى:

﴿فانكحوهن بإذن أهلهن﴾ أي: اخطبوهن إلى ساداتهن، واتفق العلماء على أن نكاح الأمة بغير إذن سيدها باطل، لأن الله تعالى جعل إذن السيد شرطاً في جواز نكاح الأمة[1].

وتأمل جمال التعبير القرآني (أهلهن) وما فيه من تكريم للإنسان وتقدير لمشاعره مهما كان.

ثم بينت الآيات الشروط الأخرى الواجب مراعاتها في الزواج من المملوكات والتي تحفظ لهن حقوقهن كاملة، فلا فرق في هذا بينهن وبين الحرائر.

﴿وآتوهن أجورهن﴾ أي: أدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن، وحذف ذلك لتقدم ذكره، قال مالك رضي الله عنه: المهر للأمة ذهاباً إلى الظاهر[2] أي: الظاهر المتبادر من الآية.

﴿بالمعروف﴾ أي: من غير مطل وإضرار ونقصان.

﴿محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾ أي: بشرط أن يكن عفيفات غير زانيات وغير ذوات أخدان.

والأخدان: جمع خدن، وهو الصاحب، وأكثر ما يستعمل فيمن يُصاحب بشهوة، يقال: خدن المرأة، وخدينها، يعني حِبها الذي يزني بها في السر.

فالمسافحة: الزانية مع غير شخص معين، تتبع كل من يدعوها.

وذات الخدن: هي التي تتخذ خليلاً تختص به، فلا تزني بغيره حتى تمله، وهو أمر شائع كثيراً في المجتمعات الغربية.

---

(١) تفسير الخازن ٢/٥٤.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/٥٤.

﴿فإذا أحصن﴾ أي: بالزواج، فهو حصن ووقاية من الفواحش كما قال ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضُّ للبصر وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء»[1].

تخفيف العقوبة عن الضعفاء

﴿فإن أتين بفاحشة﴾ أي: إن قارفن الزنى وفعلنه.

﴿فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ أي: فعليهن نصف ما على الحرائر إذا زنين، والمراد به الجلد، أما الرجم فلا يتنصف. فيجلدن خمسين جلدة.

وهذا يدل على أن الشريعة الإسلامية تقدر ظروف الإنسان، وتخفف عنه بعض ما عليه بسببها، والرق من أسباب التخفيف، لأنه ضعف، والشريعة الإسلامية تراعي الضعفاء، بخلاف ما كان سائداً في أعراف وقوانين المجتمعات الجاهلية، كانوا يشددون على الضعفاء، ويخففون على الأقوياء. كما جاء في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ ومن يجترىء عليه إلا أسامة حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكلم رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟» ثم قام فخطب فقال: «يا أيها الناس إنما ضل ـ وفي رواية هلك ـ من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»[2].

وكان المعمول به في القانون الروماني الشهير أن تشدد العقوبة كلما انحطت الطبقة، فكان يقول: ومن يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء، فعقوبته إن كان من بيئة كريمة، مصادرة تصف ماله، وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض.

وكان المعمول به في القانون الهندي الذي وضعه منو، وهو القانون المعروف باسم منوشاستر: أن البرهمي إن استحق القتل، فلا يجوز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيقتل[3].

---

(١) صحيح مسلم في النكاح ١٤٠٠.
(٢) صحيح البخاري في الحدود ٦٧٨٨.
(٣) في ظلال القرآن ٢/٦٢٩.

وما تزال الجاهلية الحديثة في أمريكا وفي جنوب إفريقية وفي غيرها تـزاول هذه التفرقة العنصرية، وتغفر للأشراف البيض ما لا تغفره للضعاف الملونين، والجاهلية هي الجاهلية حيث كانت[1].

ولا فرق في الشريعة الإسلام في عقوبة الأرقاء بين المتزوج وغيره فالآية شرعت هنا عقوبة الأمة الزانية المتزوجة، والسنة شرعتها لغير المتزوجة، قال الزهـري: فالمتزوجة محدودة بالقرآن، والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث[2] فعن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سُئِل عن الأمة إذا زنت ولم تُحصن، قال: «إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها، ثم إذا زنت فاجلدوها، ثم بيعوها ولو بضفير»[3].

﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾ أي: تشريع نكاح الإماء للذي خاف الإثم الذي تؤدي إليه غلبة الشهوة وشدتها، وهو الزنى، وأصل معنى العنت: المشقة، واستعير للزنى لما فيه من الإثم والضرر في الدين والبدن والعرض.

﴿وأن تصبروا خير لكم﴾ أي: إن تصبروا عن نكاح الإماء حتى ييسر الله لكم الحرائر خير لكم، وذلك حتى لا يكون الولد رقيقاً يتبع أمه في الحرية والعبودية، وقد لا تستطيع المملوكة القيام بواجباتها الزوجية كالحرة لانشغالها بخدمة سيدها.

﴿والله غفور رحيم﴾ [٢٥].

تذكير وتحذير

وقد عودنا الحق سبحانه أنه كلما ذكر بعض آيات الأحكام ذكر بعدها ما يؤكدها ويشجع على التمسك بها، ولهذا قال سبحانه هنا:

﴿يريد الله ليبين لكم﴾ أي: يريد سبحانه أن يبين لكم الأحكام التي فيها صلاحكم وسعادتكم.

﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ أي: ويدلكم أيضاً على مناهج الأنبياء والصالحين من قبلكم.

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) تفسير القرطبي ٥/١٤٣.

(٣) صحيح البخاري في الحدود ٦٨٣٧.

﴿ويتوب عليكم﴾ أي: ويقبل سبحانه توبتكم إذا قصرتم وأخطأتم، أو يريد سبحانه أن يجعل طاعتكم له فيما شرع لكم كفارة عما سلف من ذنوبكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾[1].

﴿والله عليم حكيم﴾ [٢٦] أي: عليم بمصالح عباده، حكيم في كل ما شرع لهم.

﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ فتمسكوا بشرعه، والتزموا بأحكامه، فهي لسعادتكم.

كرر سبحانه هذا المعنى تأكيداً بأسلوب الجملة الاسمية إظهاراً لفضله تعالى على عباده فيما شرع لهم، وحثاً لهم على الانقياد لأحكامه والتسليم لها، ولهذا قال في مقابل ذلك:

﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾ أي: ويريد الذين غلبت عليهم شهواتهم فصاروا عبيداً لها، وأطاعوها من دون الله تعالى، كما في قوله سبحانه: ﴿أرأيت من اتخذ إلٰهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[2].

﴿أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ [٢٧] أي: أن تميلوا عن الحق الذي شرعه سبحانه لكم، فتهجروه إلى شرائعهم الوضعية الناقصة، التي تميل مع مصالح واضعيها الشخصية أو الحزبية أو الطبقية أو القبلية، كما هو معروف من حال القوانين الوضعية التي يضعها الناس لأنفسهم.

وتبين الآية حرص المنحرفين عن الحق من عبيد الأهواء والشهوات على نشر فسادهم بين الناس، ويا سبحان الله ما أصدق كلام الله تعالى! إنه يفسر لنا ما نشاهده في المجتمعات المعاصرة من النشاط الدءوب المتواصل لرؤساء الضلال والفساد في نشر فسادهم وضلالهم، وكيف يحشدون له كل ما يستطيعون من وسائل الإعلام والتزوير والتحسين، فالزناة يسعون بجد ونشاط إلى إشاعة الفواحش بين الناس، وكذلك المدمنون على الخمر والمخدرات... إلخ.

---

(١) هود: الآية ١١٤.

(٢) الفرقان: الآيتان ٤٣ - ٤٤.

ولا يدل قوله سبحانه: ﴿ميلاً عظيماً﴾ على جواز الميل القليل في مفهومه المخالف عن أحكام شريعة الله، إنما الآية جاءت تصف واقع المفسدين، وأنهم يبذلون جهودهم لكي يبعدونا إبعاداً كاملاً عن ديننا وشريعة ربنا جل وعلا، فلنحذرهم على ديننا فخطرهم كبير وعظيم، ففي الآيات تذكير لنا بفضله سبحانه علينا فيما شرع لنا، وفيها أيضاً تحذير لنا من مخالطة المفسدين وبيان خطرهم علينا وعلى ديننا.

﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ أي: يريد سبحانه في هذه الشريعة السمحة الميسرة أن يخفف عنكم الأثقال التشريعية التي في الشرائع السابقة، وهذا من فضله تعالى الكبير على هذه الأمة، أنه جعل شريعتها شريعة رحمة وسماحة ويسر كما مر معنا في سورة البقرة.

﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ [٢٨] أي: خلق الإنسان خلقاً محدوداً عاجزاً، ولهذا خفف سبحانه التكاليف فيما شرع له في هذه الشريعة السمحة وجعل مناط التكليف فيها ما تتسع له إمكاناته الضعيفة، كما في قوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ الآية[١].

وقد يكون المعنى: وخلق الإنسان ضعيفاً أمام ميوله وشهواته الفطرية ولهذا أحل له تعالى ما يؤدي إلى الاستجابة لهذه الشهوات دون إفراط ولا تفريط، كما في قوله سبحانه: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾[٢] وقوله أيضاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[٣] فالشريعة الإسلامية شريعة التوسط والاعتدال تلبي كل الحاجات والرغبات دون إفراط ولا تفريط. ففي الآية إشارة إلى ميزات الشريعة الإسلامية على غيرها من الشرائع.

حرمة الأموال والأنفس

وختمت الآيات حديثها عن حقوق الضعفاء بتقرير حقين من أهم حقوق الإنسان وهما حقه في التملك المشروع للمال، وحقه في الحياة. من خلال نداء وجهته للمؤمنين:

---

(١) البقرة: الآية ٢٨٦.
(٢) البقرة: الآية ١٦٨.
(٣) المائدة: الآية ٨٧.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أي: لا يأخذ بعضكم مال بعض بطريق الكسب المحرم، فللأموال في الشريعة الإسلامية، حرمتها، وللإنسان حق في ملكية المال الذي يصل إليه بطريق مشروع، ولا يجوز الاعتداء على هذا المال، قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾[1].

والباطل: الحرام، ويشمل كل طرق الكسب المحرمة في الإسلام، كالربا والقمار والغصب والسرقة والغش والاحتيال والرشوة... إلخ. ومنها أكل أموال اليتامى ظلماً ومهور النساء بغير حق، كما مر معنا.

﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ أي: لكن أخذ المال واكتسابه بوسيلة، من وسائل الكسب المشروعة جائز كالتجارة القائمة على رضا العاقدين، فهي مثال للكسب المشروع في الإسلام، وخصت بالذكر لأن أكثر المبادلات المالية بين الناس تتم بها، فهي البيع والشراء، واشتهرت قريش بالتجارة، وكان للعرب في مكة وحولها أسواق معروفة مشهورة كعكاظ ومجنة وذي مجاز.

﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، فللحياة البشرية حرمتها في الإسلام، ومن قتل غيره عامداً تسبب في قتل نفسه قصاصاً، أو: ولا تقتلوا أنفسكم فإنكم كنفس واحدة، فمن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾[2].

أو لا يقتل أحدكم نفسه بالانتحار، فكما حرم الإسلام على الإنسان أن يقتل غيره حرم عليه أيضاً أن يقتل نفسه، قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديدتهُ في يده يتوجَّأ فيها ـ يطعن ـ في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحسَّاه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه، فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»[3]. وقال أيضاً:

---

(١) البقرة: الآية ١٨٨.

(٢) المائدة: الآية ٣٢.

(٣) صحيح مسلم في الإيمان ١٠٩، ١١٠.

«من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذباً فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة، وليس على رجل نَـذْرٌ في شيء لا يملكه»[1].

وينسحب هذا المعنى أيضاً على من يقتل نفسه بتعريضها لأسباب الهلاك في غير مواطن القتال والجهاد، أخرج الإمام أحمد في المسند وأبو داود في سننه عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت أن أغتسل فأهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جُنُب» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً[2].

﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾ [٢٩] ومن رحمته سبحانه بكم أنه شرع لكم ما يصون لكم أموالكم ويحفظ حياتكم، فالجؤوا إليه تعالى في الأزمات والشدائد، وأحسنوا الظن به، فإنه يجيب المضطر ويكشف السوء: ﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإلهٌ مع الله قليلاً ما تذكرون﴾[3].

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: يأخذ مالاً أو يقتل نفساً، أو يفعل كل ما نهى عنه سبحانه فيما تقدم من الآيات.

﴿عدواناً وظلماً﴾ أي: معتدياً فيه ظالماً في فعله، كأن يكون عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه.

﴿فسوف نصليه ناراً﴾ أي: فسوف ندخله يوم القيامة ناراً شديدة هي نار جهنم.

﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ [٣٠] لأنه تعالى قادر على كل شيء فعال لما يريد.

ودل هذا الوعيد الشديد على أن العدوان على حرمات النفوس والأموال من كبائر الذنوب، وأن الشريعة الإسلامية تهتم بحقوق الإنسان وتعظم حرمتها، ولما خطب النبي ﷺ في مكة المكرمة يوم النحر قال: «يا أيها الناس أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال: فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) بذل المجهود ٣/٥٩.

(٣) النمل: الآية ٦٢.

قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا» فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه فقال: «اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته، فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[1].

وأتبع سبحانه هذا الوعيد الشديد على انتهاك حرمات الإنسان ترغيباً في اجتناب هذه الكبائر والمحافظة على حقوق الناس، فقال:

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ أي: كبائر الذنوب التي نهاكم الله تعالى عنها ونهى عنها أيضاً رسوله ﷺ، ولا شك أن منها قتل النفس وأكل المال ظلماً وعدواناً، وفي الحديث الشريف عن أنس عن النبي ﷺ في الكبائر قال: «الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وقول الزور»[2] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» ـ أي المهلكات ـ قيل: يا رسول الله وما هنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[3].

﴿نكفِّر عنكم سيئاتكم﴾ أي: نغفرها لكم ونمحها عنكم، فصغائر الذنوب تكفر باجتناب الكبائر وفعل الطاعات، أما الكبائر فلا بد لها من التوبة والاستغفار بعد الإقلاع عنها والندم على فعلها، قال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».

﴿وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ [٣١] أي: حسناً شريفاً تكرمون فيه، هو الجنة.

---

(١) صحيح البخاري في الحج ١٧٣٩.
(٢) صحيح مسلم في الإيمان ٨٨، ٨٩.
(٣) المرجع نفسه في الطهارة ٢٣٣.

الفصل الثاني

آفاتٌ نفسيّةٌ

تربية وتشريع

الله سبحانه وتعالى يقرن في القرآن الكريم بين بيان الأحكام وتشريعها وبين تربية النفوس وتهذيبها، لكي تنقاد لهذه الأحكام وتتمسك بها فالقرآن الكريم كتاب هداية وتشريع، وتربية وتهذيب.

هذه الظاهرة القرآنية الكريمة تبدو في سورة النساء واضحة أكثر من غيرها من السور، وها هي الآيات في السورة بعدما شرعت من الأحكام ما شرعت تتجه إلى تربية النفوس وتهذيبها وتخليصها من الآفات النفسية الخطيرة التي تبتلى بها.

والحسد أعظم الآفات النفسية خطراً وأكثرها أثراً على سلوك الإنسان، وترجع إليه أكثر أسباب الخلاف والنزاع القائمة بين الناس وهو الباعث الأول على الظلم والعدوان وانتهاك حرمة الحقوق الإنسانية ويتولد الحسد في نفوس الناس بسبب التفاوت الذي قدره الحكيم العليم بين الناس في المواهب والملكات والأرزاق، هذا التفاوت الذي جعله سبحانه سبباً لقيام التعاون والتعارف بين الناس، كما قال جل وعلا: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾[1] كان أيضاً سبب ابتلائهم ببعضهم، إذ الحياة الدنيا للابتلاء والاختبار، والناجحون بهذا الابتلاء هم الذين يستجيبون لنداء الحق سبحانه وقوله:

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ أي: لا يحسد بعضكم بعضاً فالحسد أن يتمنى الحاسد زوال النعمة عن أخيه وتتحول إليه، فعلى الإنسان أن يرضى بما قسم الله تعالى له، ولا يحسد أخاه على ما أعطاه ربه سبحانه.

---

(١) الزخرف: الآية ٣٢.

روى الإمام أحمد والترمذي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾.

﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ أي: لكل من الرجال والنساء الحق أن يملك ناتج جهده وكسبه، والرازق هو الله تعالى، فعلى المقل ألا يتمنى نصيب غيره، وعليه أن يتوجه إلى الله تعالى يسأله المزيد من فضله:

﴿واسألوا الله من فضله﴾ فإن خزائنه سبحانه لا تنقص ولا تنفد.

﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ [٣٢] فهو تعالى يعلم ما يصلح لعباده، فارضوا بما قسم الله سبحانه لكم، ولا تعترضوا على قسمته وحكمته.

وفي سنن الترمذي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج».

نسخ التوارث بالتحالف

وأقرب مثال على التفاوت في الأرزاق تفاوت سهام الورثة وحظوظهم من التركة، وعلى كل وارث أن يرضى بنصيبه وحظه الذي قدره المشرع الحكيم سبحانه دون أدنى اعتراض.

﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون﴾ أي: جعل الله لكل تركة وراثاً يتولون تقاسمها كما شرع سبحانه فالتزموا بشرعه.

﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ أي: والذين بينكم وبينهم تحالف وتعاقد على التوارث، فآتوهم نصيبهم من الميراث بحسب التحالف الذي تم بينكم، وهذا كان في ابتداء الإسلام، يتوارثون بالحلف ثم نسخ، وعن ابن عباس قوله: (والذين عقدت أيمانكم) قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة، يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم، فلما نزلت ﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون﴾ نسخت[1].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٨٤.

وقوله: ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ أي: قبل نزول هذه الآية ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ أي: من الميراث، فأيما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له[1].

﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ [٣٣] فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة وهو أبلغ وعد ووعيد، وعد للطائعين، ووعيد للمخالفين.

تنظيم الأسرة

ثم ساقت الآيات مثالاً آخر على التفاوت في المواهب والملكات، بينت معه نظام الأسرة، قال تعالى:

﴿الرجال قوامون على النساء﴾ أي: يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية، فإدارة الأسرة ورعايتها منوطة بالرجل، وتنتقل في غيابه إلى المرأة.

﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ أي: بسبب ما جعل الله بين الرجال والنساء من تفاوت في المواهب والملكات، فالرجال أقوى على تحمل المسؤوليات من النساء في الأعم الأغلب.

﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي: وبسبب آخر، وهو تكليف الرجال بالإنفاق على الأسرة، فالغُنْمُ بالغُرْم، فما دام الرجل هو المكلف بنفقة المرأة فينبغي أن تكون له القوامة عليها.

والمرأة الصالحة هي التي ترضى بشرع الله تعالى، فتطيع زوجها، وتجعل من طاعتها له طاعة لله تعالى فيما أمر وشرع.

﴿فالصالحات قانتات﴾ أي: مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج.

﴿حافظات للغيب﴾ أي: يحفظن في غيبة أزواجهن ما كلفهن الله بحفظه من العرض والمال، فهن الراعيات في غيبة أزواجهن ومسؤولات عما استرعاهن الله تعالى، وقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه باباً مستقلاً قال فيه: باب: المرأة راعية في بيت زوجها. ثم أورد فيه حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[2].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٨٤.

(٢) صحيح البخاري في النكاح ٥٢٠٠.

﴿بما حفظ الله﴾ أي: في مقابل حفظ الله تعالى لهن حين أوصى الأزواج بهن وأمرهم بحسن معاشرتهن وأداء حقوقهن كاملة كما مر معنا.

معالجة نشوز المرأة

والإسلام حريص على سلامة الأسرة واستمرارها في أداء وظيفتها، ولهذا بين سبحانه للأزواج كيفية معالجة ما يطرأ على جو الأسرة من سوء تفاهم، يؤدي إلى تعكير صفو الحياة الزوجية بسبب نشوز المرأة، فقال:

﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾ أي: تخافون عواقبه السيئة.

والنشوز: العصيان، مأخوذ من النّشز، وهو ما ارتفع من الأرض، والمرأة الناشز: هي التي تتعالى على زوجها، وترفع نفسها عن طاعته.

﴿فعظوهن﴾ أي: خوفوهن عقوبة الله تعالى، لأنه سبحانه هو الذي كلفها بطاعة زوجها في غير معصية، وانصحوهن بالترغيب والترهيب كتذكيرها بقول النبي ﷺ: «إذا باتت المرأة مُهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع»[1] وقوله أيضاً: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت»[2].

فإن لم تنتفع بالموعظة لجأ إلى أسلوب هجرها في الفراش.

﴿واهجروهن في المضاجع﴾ أي: اهجروهن في الفراش، واعتزلوا النوم معهن، والمضجع موضع الإغراء والجاذبية التي تبلغ فيها المرأة الناشز قوة سلطانها، فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التي تعتز بها، وتصبح في الغالب أميل إلى التراجع والملاينة. فإن لم تنجح، وأصرت المرأة على نشوزها وعنادها واستبد بها الهوى الجامح، فلا بد حينئذ حتى لا يستفحل المرض ويهدد الأسرة بالسقوط، من استعمال دواء أقوى وأشد، ولو كان مؤلماً مراً، إذ يحتمل أخف الضررين لدفع أشدهما، وهو ضرب التأديب الذي تصاحبه شفقة المؤدب والمربي.

---

(١) المرجع نفسه ٥١٩٤.

(٢) رواه أحمد والطبراني.

﴿واضربوهن﴾ أي: ضرباً غير مبرح ولا شائن، كما قال ﷺ في خطبة حجة الوداع: «اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه[1]، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح...»[2].

والضرب المبرح: هو الضرب الشديد الشاق، ومعناه: اضربوهن ضرباً ليس بشديد ولا شاق، وهو الذي لا يكسر عظماً ولا يترك أثراً، ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام ما ضرب امرأة قط، فقد أخرج النسائي والإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة له ولا خادماً قط، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا في سبيل الله، أو تنتهك حرمات الله فينتقم لله».

وكان ﷺ يحث أصحابه على عدم الضرب ويقول: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها في آخر اليوم»[3].

﴿فإن أطعنكم﴾ أي: بترك النشوز والعودة إلى الطاعة والموافقة.

﴿فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي: لا تطلبوا وتبحثوا عن طريقة تحتجون بها عليهن وتؤذونهن بسببها، فعلى الأزواج أن يغضّوا النظر عن عثرات نسائهم، ويحتملوا هفواتهن كما مر معنا.

﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ [٣٤] فاحذروا غضبه، فإنه تعالى أقدر عليكم منكم على أزواجكم، ففيه تهديد للرجال الذين يبغون على نسائهم من غير سبب.

وقد يكون النشوز أحياناً من كلا الزوجين، فعلى أولياء الأمور في مثل هذه الحالة، أن يعملوا على إزالة ما بين الزوجين من نزاع وخلاف وإعادة الوفاق والتفاهم إليهما بواسطة التحكيم:

﴿وإن خفتم شقاق بينهما﴾ أي: إن علمتم حدوث خلاف بين الزوجين.

﴿فابعثوا حكماً من أهله﴾ أي: رجلاً يصلح للتحكيم من أهل الزوج.

﴿وحكماً من أهلها﴾ أي: وابعثوا آخر من أهل المرأة، فإن أقارب الزوجين

---

(١) أي لا يأذنّ لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم.

(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم في كتاب الحج ١٢١٨.

(٣) صحيح البخاري في النكاح ٥٢١٤.

يحرصون في العادة على الإصلاح، ويعرفون بواطن الأمور أكثر من غيرهم، فإن لم يوجد من أهلهما من يصلح لذلك يرسل من غير أهلهما.

﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ أي: إن قصد الحكمان الإصلاح أوقع الله تعالى بحسن سعيهما الألفة والوفاق بين الزوجين.

وقد يكون المعنى: يوفق الله بين الحكمين فيتفقان على رأي واحد يتم بواسطته التوفيق بين الزوجين.

﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ [٣٥] وفي ذلك تهديد للزوجين والحكمين ليسلكوا طريق الحق ويلتزموا به.

ودلت الآية على أن الإسلام يفضل أن تسوى الخلافات الزوجية في نطاق الأسرة بين الزوجين، وإذا تعذر عليهما ذلك بسبب عمق الخلاف واستفحال النزاع يلجأ حينئذ إلى تحكيم الأقارب منهما.

أسرة إنسانية واحدة

ثم خرجت الآيات عن نطاق الأسرة الزوجية، إلى دائرة الأسرة الإنسانية الواحدة التي تضم جميع البشر، كما مر معنا في أول السورة فبينت كيف يجب أن تكون الصلات الاجتماعية بينهم بعد بيان صلتهم مع الله تعالى:

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ أي: اعبدوا الله وحده، وأخلصوا في طاعته وعبادته فلا تشركوا معه شيئاً، فالله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له جل جلاله، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1].

﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: أحسنوا إلى الوالدين إحساناً، فهما أحق الناس بالشكر والإحسان والبر والطاعة بعد شكر الخالق وطاعته ولهذا ذُكرا في الآية قبل غيرهما من الناس، وقد قرن سبحانه شكرهما بشكره في موضع آخر فقال: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾[2].

---

(١) صحيح مسلم في الزهد ٢٩٨٥.

(٢) لقمان: الآية ١٤.

﴿وبذي القربى واليتامى والمساكين﴾ أي: أحسنوا إلى الأقارب واليتامى والمساكين، بالمحافظة على حقوقهم والاهتمام بشؤونهم، فالشريعة الإسلامية تهتم كثيراً بالضعفاء في المجتمع وتسعى إلى تقوية الصلات الاجتماعية بين الناس وخاصة الأقارب والجيران ولهذا أضافت الآية الوصية بالجيران:

﴿والجار ذي القربى﴾ أي: أحسنوا إلى الجار القريب، فله حقوق القرابة وحقوق الجوار.

حقوق الجيران

فللجار في الإسلام حقوق أمر الله برعايتها، منها تفقد أحواله وطلاقَةُ الوجه عند لقائه، ومعاونته فيما يحتاج إليه؛ وكف أسباب الأذى عنه، وفي الحديث الشريف عن أبي شريح أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جارُه بوائقه»[1] وزاد أحمد في رواية: قالوا: وما بوائقه؟ قال: شره.

وهذا يدل على تعظيم حق الجار، وأن إضراره من الكبائر.

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[2].

﴿والجار الجُنُب﴾ أي: وأحسنوا أيضاً إلى الجار الذي لا قرابة له فله عليكم حقوق الجوار فقط.

﴿والصاحب بالجنب﴾ أي: وإلى الجار المصاحب في مجلس أو سفر أو عمل، فمجاورته مؤقتة وليست مستمرة، فله عليك حق الصحبة في مؤانسته وملاطفته ودفع الأذى عنه.

قال ابن حجر رحمه الله: اسم الجار يشمل المسلم والكافر، والعابد والفاسق، والصديق والعدو، والغريب والبلدي، والنافع والضار، والقريب والأجنبي، والأقرب داراً والأبعد، وله مراتب بعضها أعلى من بعض، فأعلاها من اجتمعت فيه الصفات الأول كلها، ثم أكثرها وهلم جراً... فيُعطى كلٌّ حقه بحسب حاله[3].

---

(١) صحيح البخاري في الأدب ٦٠١٦.
(٢) صحيح البخاري في الأدب ٦٠١٤.
(٣) فتح الباري ١٠/٤٤١.

حق الضيف والغريب

﴿وابن السبيل﴾ أي: أحسنوا إلى ابن السبيل، وهو المسافر أو الضيف يمر بك فتكرمه وتساعده وتحسن إليه، فللضيف في الإسلام حق، حتى إن الإمام البخاري في صحيحه قال: باب حق الضيف.

ثم روى الحديث الشريف بسنده عن عبدالله بن عمرو قال: دخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: «ألم أُخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلتُ: بلى، قال: فلا تفعل، قم ونم، وصم وأفطر، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزَوْرك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً»[1]. والزَّوْر: الزائر والضيف. وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقروننا، فما ترى؟ فقال: «إن نزلت بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»[2].

وكما جعل النبي ﷺ للضيف حقاً أوصاه ألا يثقل على أهل البيت حتى لا يحرجهم، فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه»[3].

والجدير بالذكر أن الشريعة الإسلامية جعلت ابن السبيل، وهو المسافر المنقطع في الطريق من مصارف الزكاة، فيجوز إن كان مسلماً مساعدته من أموال الزكاة.

حقوق العبيد

﴿وما ملكت أيمانكم﴾ أي: وأحسنوا إلى ما ملكت أيمانكم من العبيد والإماء، فإنهم من الضعفاء الذين اهتم الإسلام بحماية حقوقهم، وكثيراً ما أوصى النبي ﷺ بهم في حياته وعند وفاته عليه الصلاة والسلام، فعن علي رضي الله عنه قال: كان آخر كلام النبي ﷺ: «الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[4].

وفصل ﷺ في حديث آخر كيف يجب أن تكون معاملتهم، فعن المعرور بن

---

(١) (٢) صحيح البخاري في الأدب ٦١٣٤، ٦١٣٧.
(٣) المرجع نفسه ٦١٣٥.
(٤) رواه أبو داود وابن ماجه.

سويد قال: مررنا بأبي ذر بالرَّبذَة، وعليه بُرْد وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حُلَّة، فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فقال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»(١).

وأمر ﷺ من ضرب مملوكه أن يعتقه، فعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه»(٢).

وعن سويد بن مقرن أن جارية له لطمها إنسان، فقال له سويد: أما علمت أن الصورة محرمة؟ لقد رأيتني وإني لسابع أخوة لي مع رسول الله ﷺ، وما لنا خادم غير واحد، فعمد أحدنا فلطمه فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقه(٣).

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: كنت أضرب غلاماً لي، فسمعت من خلفي صوتاً: «اعلم أبا مسعود لَلَّهُ أقدر عليك منك عليه» فالتفت فإذا رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله، فقال: «أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار»(٤) هكذا حمى الإسلام الضعفاء وصان لهم حقوقهم.

﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً﴾ أي: متكبراً متعاظماً في نفسه لا يحترم الناس ولا يقوم بحقوقهم.

﴿فخوراً﴾ [٣٦] أي: يفتخر على الناس ويتطاول عليهم.

ولا يخفى شدة الاتساق بين موضوع الآية وخاتمتها، فالمختال الفخور يأنف من أقاربه الفقراء ومن جيرانه الضعفاء، فلا يحسن إليهم ولا يلوي بنظره عليهم، ولأن المختال هو المتكبر، ومن كان متكبراً فلا يقوم بحقوق الناس(٥).

التحذير من البخل

وثمة آفة نفسية أخرى، قرينة للحسد ولا تقل عنها قبحاً وخطراً وهي آفة البخل، وهي كالحسد لها آثار سلبية على علاقة الإنسان مع أبناء مجتمعه، تحمله على حب

---

(١) (٢) (٣) (٤) صحيح مسلم في الأيمان ١٦٦١، ١٦٥٧، ١٦٥٨، ١٦٥٩.
(٥) تفسير الخازن ٢/٧٢.

الذات والأثرة والمادية والجشع، وتورثه قسوة في طبعه، وغلظة في نفسه، وتدفعه إلى انتهاك حقوق الآخرين والعدوان عليهم. قال تعالى في المتصفين بها:

﴿الذين يبخلون﴾ وكأن الآية تعني المختالين الفخورين الذين لا يحبهم سبحانه، فهم الذين يبخلون، ويمتنعون عن أداء ما أوجب الله عليهم لأقاربهم وجيرانهم وسائر أبناء مجتمعهم، ويظلمونهم ويستحلون حقوقهم، كما في الحديث الشريف عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[1] والشح أشد أنواع البخل.

﴿ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي: ويشجعون على البخل ويأمرون غيرهم به لأنهم يكرهون السخاء، ويمقتون الجود والكرم، فهم لا يبخلون بما عندهم فقط، وإنما يبخلون بما عند غيرهم أيضاً.

﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ أي: ويتظاهرون بالفقر، ويجحدون نعم الله عليهم، فالبخيل يجحد نعمة الله، فلا تظهر عليه آثارها، ولا تبين في مأكله ولا في ملبسه ولا في عطائه وبذله.

﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ [٣٧] أي: هيأنا للكافرين نعمة الله الجاحدين لها عذاباً مهيناً، والكفر هو الستر والتغطية، والبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها[2].

والجدير بالذكر أنه سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ولهذا قال: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[3] وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة؟ قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[4] ومعنى بطر الحق: إنكاره ودفعه، وغمط الناس: احتقارهم.

---

(١) صحيح مسلم في البر ٢٥٧٨.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٩٠.
(٣) الضحى: الآية ١١.
(٤) صحيح مسلم في الإيمان ٩١.

التحذير من الرياء وحب الظهور

ونبهت الآيات إلى آفة نفسية أخرى، قد يظنها بعض الناس كرماً وجوداً، وهي في حقيقتها مظهر من مظاهر حب الذات والتكبر والافتخار وهي آفة حب السمعة والرياء، قال تعالى:

﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾ أي: ينفقون أموالهم من أجل السمعة والشهرة بين الناس، لكي يمدحوا بالكرم والإحسان، حتى إن بعضهم ينفق على المداحين من رجال الصحافة والإعلام أكثر مما ينفق على المحتاجين واليتامى والضعفاء.

ومر معنا أنه سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له.

﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ أي: ولا يؤمنون الإيمان الصحيح بالله تعالى ولا باليوم الآخر، فما بعثهم على الإنفاق إيمانهم بالله تعالى وتصديقهم باليوم الآخر، إنما الذي بعثهم على هذا الإنفاق الشيطان الذي زين لهم هذه الآفات الخطيرة، الحسد والبخل والكبر والرياء، قال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾[1] وقال أيضاً: ﴿الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾[2] وختم سبحانه الآية هنا بقوله:

﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ [٣٨] أي: ومن يكن الشيطان صاحباً له فبئس الصاحب، لأنه إلى الشر ساحب.

﴿وماذا عليهم﴾ أي: أيُّ شيء على أولئك الذين يبخلون ويحسدون ويراءون، أي مسؤولية تلحقهم؟

﴿لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾ فهو سؤال فيه توبيخ لهم على الجهل بالمنفعة الحقيقية، فأي مصلحة لهم في ذلك؟ وهذا كما يقال للعاق: ما ضرك لو كنت باراً؟[3].

وفي السؤال مع التوبيخ تحريض لهم على التفكير لعله يؤدي بهم إلى إدراك ما هم عليه من خطأ، ومعرفة الحق والصواب.

---

(١) البقرة: الآية ٢٦٨.

(٢) محمد: الآية ٢٥.

(٣) تفسير النسفي ٢/٧٢.

﴿وكان الله بهم عليماً﴾ [٣٩] لا تخفى عليه سبحانه حقيقة أعمالهم ومقاصدهم.

عدل وفضل

ثم قال سبحانه يبين كمال عدله وعظيم فضله:

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ أي: لا يكون منه ظلم أبداً، ولا حتى مقدار ذرة فما دونها في الصغر، فلا ينقص أحداً ثواب عمل عمله مهما كان صغيراً، كما في قوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾(١).

وقوله أيضاً: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾(٢).

هذا عدل الله سبحانه، وأما فضله فبينه بقوله:

﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾ أي: وإن كان مثقال الذرة حسنة يضاعفها أضعافاً كثيرة، كما قال: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾(٣).

وقال أيضاً: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾(٤).

﴿ويؤت من لدنه﴾ أي: ويعطِ من عنده على سبيل التفضل.

﴿أجراً عظيماً﴾ [٤٠] أي: ثواباً عظيماً لا يحيط بمقداره إلا الله عز وجل، فلا ينبغي لأحد أن يتوجه إلا إليه سبحانه، ولا يعتمد إلا عليه.

ويظهر سبحانه عدله وفضله يوم القيامة:

﴿فكيف﴾ أي: كيف يكون حالهم يوم القيامة وهم يحملون كبائر الذنوب كالحسد والبخل والكبر والرياء.

---

(١) الزلزلة: الآية ٧.
(٢) الأنبياء: الآية ٤٧.
(٣) الأنعام: الآية ١٦٠.
(٤) النمل: الآيتان ٨٩ ـ ٩٠.

﴿إذا جئنا من كل أمة بشهيد﴾ أي: إذا جئنا يوم القيامة بنبي كل أمة ليشهد على أعمالهم وما فيها من قبح وفساد.

﴿وجئنا بك﴾ أي: يا محمد ﷺ.

﴿على هؤلاء شهيداً﴾ [٤١] أي: لتشهد على هؤلاء الذين بلغتهم دعوتك ووصلتهم رسالتك.

﴿يومئذ يود الذين كفروا﴾ أي: جحدوا فضل الله تعالى عليهم.

﴿وعصوا الرسول﴾ أي: وخالفوا سنة الرسول ﷺ.

﴿لو تسوى بهم الأرض﴾ أي: لو يُدفنون في تراب الأرض ويصبحون جزءاً منها، وذلك بسبب ما يرون من أهوال هذا اليوم، وما يلحقهم فيه من الخزي والفضيحة، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾[1].

﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾ [٤٢] أي: وحالهم أنهم لا يستطيعون أن يخفوا شيئاً من قبائحهم وفضائحهم.

وقد بكى ﷺ عندما سمع هذه الآية، فعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ، قلتُ: آقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري. فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ قال لي: كُفَّ، أو أمسك. فرأيت عينيه تذرفان»[2].

واختلفوا في سبب بكائه، فرأى بعضهم أنه ﷺ بكى لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحق له طول البكاء، ورأى ابن حجر رحمه الله أنه بكى رحمة لأمته، لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيماً، فقد يفضي إلى تعذيبهم[3].

---

(١) النبأ: الآية ٣٠.
(٢) صحيح البخاري في فضائل القرآن ٥٠٥٥.
(٣) انظر فتح الباري ٩/٩٩.

الحرص على الطهارة

وعندما وصلت الآيات إلى هذا الحد من الترهيب والتخويف، والتربية والتهذيب، التفتت إلى المؤمنين تخاطبهم وتشرع لهم من الأحكام ما فيه نجاتهم من هول يوم القيامة وأفزاعه.

فالقرآن الكريم يقدم التشريع تارة، ثم يعقب عليه بتربية النفوس وتهذيبها لتقبل على هذا التشريع وتعمل به، كما مر معنا في صدر السورة، وتارة أخرى يمهد للتشريع بتهذيب النفوس وتربيتها، وبذلك يرفعها إلى المستوى الذي تصبح فيه مستعدة لقبول التكليف والتزام الأحكام، كما هو الحال هنا. والأمر المعجب المعجز أن تكون الأفكار وتغير الأسلوب في الآيات الكريمة، لا يؤثر على اتساق جرسها وانسجام تسلسلها ووقعها على المسامع والقلوب، إنه كلام العزيز الحكيم.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ أي: لا تصلوا وأنتم في حال السكر من نحو خمر أو نوم.

﴿حتىٰ تعلموا ما تقولون﴾ أي: ما تقرؤون في الصلاة، ففي الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم في الصلاة فلينم حتىٰ يعلم ما يقرأ»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتىٰ يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلىٰ وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه»[2].

هذه الآية نزلت قبل التحريم القطعي للخمر، وقد ذكروا في سبب نزولها ما أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي والحاكم وصححه، عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدموني، فقرأت: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون. فنزلت.

وفي رواية ابن جرير وابن المنذر: إن إمام القوم يومئذ هو عبد الرحمن، وكانت الصلاة صلاة المغرب، وكان ذلك لما كانت الخمر مباحة[3].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء (٢١٣).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الوضوء (٢١٢).
(٣) روح المعاني ٥/٣٨.

ومن المعلوم أن الخمر ما حرمت دفعة واحدة، فقد أنزل الله تعالى أولاً ما ينفرهم عنها، في قوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾[1].

ثم أنزل آية النساء هذه، فضيق فيها عليهم أوقات شربها، ثم أنزل تحريمها القطعي في قوله الكريم: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[2].

وأكد هذا قول السيدة عائشة رضي الله عنها: إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتىٰ إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً[3].

﴿ولا جنباً﴾ أي: ولا تصلوا وقد أجنبتم، والجنب هو غير الطاهر من إنزال مني بشهوة أو جماع، وأصل الجنابة البعد، سمي الذي أصابته الجنابة جنباً لأنه يتجنب الصلاة والمسجد، وقيل لمجانبته الناس حتىٰ يغتسل[4].

﴿إلا عابري سبيل﴾ أي: غير مسافرين، أو غير مجتازين في المسجد.

﴿حتىٰ تغتسلوا﴾ أي: إلىٰ أن تغتسلوا.

فالمعنىٰ على الأول: لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب، إلا أن تكونوا مسافرين ولم تجدوا الماء، فتيمموا.

وعلى الثاني: لا تقربوا المسجد وأنتم جنب، إلا مجتازين فيه، كأن تكون طريقه عليه فيمر فيه.

وقد ذكروا في سبب النزول ما يؤيد المعنىٰ الثاني، قال ابن كثير رحمه الله: يروى أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبهم الجنابة ولا ماء

---

(١) البقرة: الآية ٢١٩.

(٢) المائدة: الآيتان ٩٠ ـ ٩١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن (٤٩٩٣).

(٤) تفسير الخازن ٢/٧٩.

عندهم، فيردون الماء، ولا يجدون ممراً إلا في المسجد، فأنزل الله ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾[1] ويؤيده قول النبي ﷺ: «لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر»[2].

وعن جسرة بنت دجاجة قالت: سمعت عائشة تقول: جاء رسول الله ﷺ، ووجوه بيوت أصحابه شارعة في المسجد، فقال: «وجهوا هذه البيوت عن المسجد» ثم دخل النبي ﷺ ولم يصنع القوم شيئاً؛ رجاء أن تنزل فيهم رخصة، فخرج إليهم فقال: «وجهوا هذه البيوت عن المسجد، فإني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب»[3].

ثم شرع تعالى التيمم بدل الغسل والوضوء، للعاجز عن استعمال الماء بسبب فقد الماء أو المرض، فقال:

﴿وإن كنتم مرضىٰ﴾ والمراد مرض يضره استعمال الماء، كزيادة ألم أو تأخير برء.

﴿أو على سفر﴾ أي: ولا ماء معكم.

﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ أي: أحدث بخروج شيء من أحد السبيلين.

وأصل الغائط المكان المنخفض من الأرض، وكان العرب يقصدون الأماكن المنخفضة لقضاء الحاجة.

﴿أو لامستم النساء﴾ أي: جامعتموهن، أو لامست بشرتكم بشرتهن.

﴿فلم تجدوا ماءً﴾ أي: فلم تقدروا على استعمال الماء، لعدمه أو بُعْده، أو فقد آلة الوصول إليه، أو لوجود مانع يحول بينكم وبينه.

﴿فتيمموا صعيداً طيباً﴾ أي: فاقصدوا وجه الأرض الطاهر.

﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ أي: أوقعوا المسح بوجوهكم وأيديكم منه، كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٣٩٤.
(٢) انظر الحديث كاملاً في صحيح البخاري، كتاب الفضائل (٣٦٥٤).
(٣) رواه أبو داود في السنن.

ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾[1].

﴿إن الله كان عفواً غفوراً﴾ [٤٣] ولذلك يسر الأمر عليكم ورخص لكم، فالتيمم من خصائص الأمة المسلمة، وهو دليل على يسر أحكام الشريعة الإسلامية وسماحتها.

الضالون المضلون

ثم سلكت الآيات مسلكاً جديداً، واتبعت أسلوباً مغايراً، في تربية المؤمنين، وتنقية نفوسهم من الآفات الخطيرة التي سبق التحذير منها، فعرضت أصنافاً من الناس ابتلوا بهذه الآفات، وبينت كيف استعمرت نفوسهم، وتمكنت من قلوبهم ودفعتهم إلى الظلم والعدوان، وإلى الكذب والاحتيال، وأوصلتهم إلى تحريف كلام الله تعالى، والعدوان على أنبيائه ورسله عليهم السلام.

اختارت الآيات صنفين من الناس، كانوا يعيشون مع المؤمنين في المدينة المنورة، ويشكلون قطاعاً كبيراً من مجتمعها، وهم اليهود والمنافقون، وبهذا المسلك الجديد، جمعت الآيات بين تربية المؤمنين وتنقية نفوسهم من هذه الآفات، وبين تحذيرهم أيضاً من مكر وكيد اليهود والمنافقين.

اتبعت الآيات في عرضها أسلوب الاستفهام التقريري، الذي يقصد به التعجيب وتنبيه المخاطب، ليتأمل أحوال هؤلاء الناس، ويراهم على حقيقتهم المزرية وصورتهم القبيحة.

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ أي: ألم تنظر إلى الذين أُعطوا جزءاً يسيراً من علم الكتاب المنزل عليهم، والمراد بهم أحبار اليهود الذين أعطوا حظاً من التوراة فقط، فقد حرموا من بركة فهمه والعمل به.

﴿يشترون الضلالة﴾ أي: يختارون الضلالة، ويستبدلونها بالهدى، كما فعل المنافقون الذين قال تعالى فيهم: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾[2].

---

(١) المائدة: الآية ٦.

(٢) البقرة: الآية ١٦.

﴿ويريدون أن تضلوا السبيل﴾ [٤٤] أي: ويريدون منكم أيها المؤمنون، أن تضلوا سبيل الحق وتنحرفوا عنه كما ضلوه، لأنهم لا يريدون لكم الهداية والخير، فهم ضالون مضلون، حالهم كحال الذين يتبعون الشهوات، كما مر عند قوله تعالى: ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾.

﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ وهؤلاء من جملتهم، فكونوا على حذر من كيدهم ومكرهم.

﴿وكفىٰ بالله ولياً﴾ أي: متولياً لأموركم، فثقوا بولايته تعالى لكم، وتمسكوا بأحكام دينه وشرعه.

﴿وكفىٰ بالله نصيراً﴾ [٤٥] أي: ينصركم ويؤيدكم.

ولا يخفىٰ ما في ختام الآية من تثبيت للمؤمنين، وشحذ لعزائمهم، ورفع لهممهم، وهم يواجهون أعداءهم.

ثم أماطت الآيات اللثام عن هؤلاء الضالين المضلين:

﴿من الذين هادوا﴾ أي: هم من اليهود. و(من) هنا لبيان الجنس.

﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي: يزيلون كلام الله تعالى عن مواضعه التي وضعه سبحانه فيها، حسبما تقتضيه شهواتهم من إبدال غيره مكانه، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾[1] أي: التي وضعه سبحانه فيها.

ثم بينت الآيات كيف تجرؤوا على الرسول ﷺ، وحاولوا المكر به وتوجيه الأذى إليه:

﴿ويقولون سمعنا وعصينا﴾ أي: ويقولون للرسول ﷺ: سمعنا كلامك ولا نطيعك فيه، وقد بلغوا في هذا الغاية في الكفر والعناد وسوء الأدب.

﴿واسمع غير مسمع﴾ وهو قول ذو وجهين، يحتمل الذم، أي: اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت، فلو أجيبت دعوتهم لم يسمع ﷺ شيئاً. ويحتمل المدح، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً.

وهم لا يريدون بها المدح، إنما يقولونها نفاقاً، ويضمرون الذم.

---

(١) المائدة: الآية ٤٠.

﴿وراعنا﴾ أي: أرعنا سمعك، وهم يريدون نسبته عليه الصلاة والسلام إلى الرعونة.

﴿ليّاً بألسنتهم﴾ أي: يقولون ذلك صرفاً للكلام إلى ما يضمرون من السب والتحقير.

﴿وطعناً في الدين﴾ أي: واتهاماً للنبي ﷺ، وطعناً في صحة نبوته، إذ كانوا يقولون فيما بينهم: لو كان نبياً حقاً لعرف ذلك وأظهره الله عليه.

ويدل قولهم هذا على شدة غبائهم، فقد كان النبي ﷺ يعرف ما يريدون من كلامهم، وما يضمرون في نفوسهم، ولكنه عليه الصلاة والسلام ما كان يواجههم بما يكرهون، ولا ينزل إلى مستواهم، بسبب أخلاقه العالية الكريمة.

وفي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقلت: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «قد قلت: وعليكم»[1].

وقد فضحهم سبحانه هنا وكشف خبيئة نفوسهم، فقال:

﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا﴾ أي: بدل قولهم ﴿اسمع غير مسمع وراعنا﴾.

﴿لكان خيراً لهم وأقوم﴾ أي: لكان قولهم هذا خيراً لهم عند الله تعالى وأعدل، وأبعد عن الريبة.

وهذا يدل أن على الإنسان أن يبتعد عن الكلمات المريبة، التي تحتمل معاني قبيحة سيئة.

﴿ولكن لعنهم الله بكفرهم﴾ أي: ولكنه سبحانه خذلهم، ولم يوفقهم إلى الهدى والصلاح، وطردهم من ساحاته، بسبب كفرهم وعنادهم وجحودهم.

﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ [٤٦] أي: فلا ينجيهم ولا يقبل منهم؛ لأنهم آمنوا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب (٦٠٢٤).

ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، فقلوبهم محرومة من الخير، مبعدة عنهم، أو لا يستجيب للإيمان منهم إلا عدد قليل، كعبدالله بن سلام، وزيد بن سعنة رضي الله عنهما.

طمس الوجوه

ثم توجهت الآيات بالخطاب مباشرة إليهم، تدعوهم إلى الإيمان الكامل؛ إقامة للحجة عليهم وإلزاماً لهم بها، وتتوعدهم بأشد أنواع الوعيد والعذاب، وتذكرهم ببعض أنواعه التي أنزلها الله تعالى على أسلافهم:

﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا﴾ أي: على محمد ﷺ.

ويلاحظ أنه تعالى وصفهم هنا بأنهم أوتوا الكتاب، ولم يصفهم بأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب؛ تأليفاً لهم لكي يستجيبوا لدعوته، وتذكيراً لهم بأن عندهم الكتاب الذي يشهد بصدق دعوة النبي ﷺ وصحة رسالته.

﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي: مصدقاً للتوراة، ومعنىٰ تصديقه إياها نزوله حسبما نعت لهم فيها، أو كونه موافقاً لها في توحيد الله تعالى والإسلام له، والإذعان لدينه وشرعه، أو شاهداً على أن الله تعالى أنزلها على موسى عليه السلام.

﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فَنَرُدَّها على أدبارها﴾ أي: من قبل أن نمحو ملامحها وصور ما فيها من عين وحاجب وأنف وفم، ونجعلها على هيئة أقفائها. أو نديرها فنجعل الوجوه إلى الخلف والأقفاء إلى الأمام.

وقد يكون المراد طمس القلب والبصيرة، وتغيير أحوالهم إلى الصغار والذلة بعد العز.

وفي تنكير (وجوه) المفيد للتكثير، تهويل للخطب، وفي إبهامها لطف بالمخاطبين وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان[1].

﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ أي: أو نلعنهم ونطردهم من الرحمة، وننزل بهم العذاب، كما عذبنا أصحاب السبت من أسلافهم، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة

---

(١) تفسير أبي السعود ٢/١٨٥.

خاسئين * فجعلناها نكـالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾[1].

وفصل خبرهم أكثر في قوله أيضاً: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون * وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون * فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾[2].

وقد اختلف العلماء الذين حملوا طمس الوجوه على الحقيقة، في زمن وقوعه، هل يقع في الدنيا أم في الآخرة؟ بعضهم قال في الآخرة، وبعضهم قال إنه منتظر بعد، ولا بد من طمس في اليهود ومسخ قبل قيام الساعة، ورأى بعضهم أن الوعيد بوقوع أحد الأمرين، كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ فإن لم يقع الأمر الأول فلا نزاع في وقوع الأمر الثاني، فإن اليهود ملعونون بكل لسان وفي كل زمان، فاللعن بمعناه الظاهر، والمراد من التشبيه بلعن أصحاب السبت، الإغراق في وصفه[3]، أي المبالغة في وصفه.

ورأى بعضهم أنه مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء، إلى سبيل الضلالة يهرعون، ويمشون القهقرى على أدبارهم[4]. لكن هذا لا ينسجم مع قوله تعالى في ختام الآية:

﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ [٧] أي: نافذاً أو كائناً، فهو واقع لا محالة إن لم يؤمنوا، فالأمر ليس مثلاً، إنما هو تهديد بعذاب واقع.

الذنب الذي لا يغفر

وتابعت الآيات تهديدها، وقررت معه قاعدة هامة من قواعد العقيدة الإسلامية:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ أي: إن مات عليه، فهو حكم مبرم قدره الله تعالى، فالكفر ذنب لا يمحى أثره، وصاحبه مخلد في العذاب أبداً.

(١) البقرة: الآيتان ٦٥ ـ ٦٦.
(٢) الأعراف: الآيات ١٦٣ ـ ١٦٦.
(٣) روح المعاني ٥/٥٠.
(٤) مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٠٠.

﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ أي: يغفر ما دون الشرك ولو كان ذنباً كبيراً.

﴿لمن يشاء﴾ أي: لمن تعلقت مشيئته تعالى بمغفرة ذنوبه.

ففي الآية، بعدما تقدم من الوعيد، ترغيب بالتوبة وحث عليها، كما في قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين﴾[1].

وفيها أيضاً دليل على أن صاحب الكبيرة إذا مات من غير توبة، فإنه في خطر المشيئة، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة بمنه وكرمه، وإن شاء عذبه بالنار، ثم أدخله الجنة برحمته وإحسانه[2].

﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ [٤٨] أي: ارتكب ما تستحقر دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنىٰ الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والافتراء كما يطلق على القول يطلق على الفعل[3].

فالفرق بين الشرك وغيره من الذنوب والآثام أنه ذنب لا يغفر، وفي الحديث الشريف عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟ قال: وإن زنىٰ وإن سرق»[4].

المادحون أنفسهم

والتزمت الآيات أسلوب التقرير والتعجيب، في عرضها لقبائح أهل الكتاب، وبيان آفاتهم النفسية:

﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم﴾ أي: يمدحون أنفسهم ويثنون عليها، وأصل التزكية: التطهير والتنزيه من القبيح قولاً، كما هو الظاهر هنا، وفعلاً، كقوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها﴾[5]، وقوله أيضاً: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾[6].

---

(١) الأنفال: الآية ٣٨.
(٢) تفسير الخازن ٢/٩٤.
(٣) تفسير البيضاوي ٢/٩٥.
(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٩٤).
(٥) الشمس: الآية ٩.
(٦) التوبة: الآية ١٠٣. انظر: روح المعاني ٥/٥٤.

والمراد بهم اليهود الذين يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، ويرون أن لهم تفوقاً وامتيازاً على الناس، وهو ما جعلهم يستحلون العدوان على حقوق الناس، ويسعون في نشر الفساد بينهم، كما أن هذا القول أساس الفكرة الخبيثة العنصرية التي تنادي بتفوق بعض الأجناس البشرية، والتي كانت ولا تزال سبب كثير من الحروب المدمرة.

﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ أي: يثني سبحانه على من يشاء، ويهدي إلى الأخلاق الفاضلة والخصال الرفيعة من يشاء؛ لأنه سبحانه العليم الحكيم، كما قال: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقىٰ﴾[1].

وأفادت كلمة (بل) التي هي للإضراب، على أن التزكية المعتد بها تزكية الله تعالى، لا تزكية غيره، وأن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم لا حظ لهم في تزكية الله تعالى.

﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ [٤٩] أي: إن الله تعالى يعاقب الذين يزكون أنفسهم، ولا يظلمهم شيئاً، ولا مقدار فتيل، وهو ما يحدث بفتل الأصابع من الوسخ، أو هو الخيط الرفيع في شق نواة التمر، فالله تعالى حكم عدل منزه عن الظلم مطلقاً.

ثم أوردت الآيات تعجيباً آخر، وهي تخاطب النبي ﷺ:

﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ فإن تزكيتهم لأنفسهم بادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه تعالى لن يعذبهم على ذنوبهم، يتضمن ما هو أعظم جرماً وأكثر قبحاً من تزكيتهم أنفسهم؛ إذ ينسبون إلى الله تعالى ما يستحيل عليه سبحانه بالكلية، من قبول الكفر ورضاه به، ومغفرة كفر الكافر[2]. وهو سبحانه لا يرضى أبداً عن الكفر كما قال: ﴿ولا يرضىٰ لعباده الكفر﴾[3]. ولا يغفره أيضاً، كما مر في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

فتزكيتهم أنفسهم كذب على الله تعالى؛ ولهذا جعل افتراءهم عين الكذب؛ لشدة قبحه وشناعته، كأنه أمر مرئي ينظر إليه، مع أنه مما يقال ويسمع.

﴿وكفىٰ به إثماً مبيناً﴾ [٥٠] فافتراؤهم على الله تعالى فقط إثم كبير واضح يستحقون به أشد العقوبات وأعظمها.

---

(١) النجم: الآية ٣٢.
(٢) تفسير أبي السعود ٢/١٨٩.
(٣) الزمر: الآية ٧.

المؤمنون بالجبت والطاغوت

وقد دفعتهم هذه الآفات النفسية الخطيرة، وخاصة آفة الحسد، إلى الكفر برسالة النبي ﷺ وجحودها، وإلى طمس ما في التوراة من صفاته ونعوته عليه السلام، ودفعتهم أيضاً إلى تفضيل عبادة الأصنام والأوثان، على عبادة الله تعالى وطاعته وحده؛ ولهذا أنزل الله فيهم قوله الكريم:

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾ أي: يؤمنون بالأوثان والأصنام، ويصدقون من يدعو إلى عبادتها.

فالجبت: الأصنام والأوثان. والطاغوت: المبالغ بالطغيان، وهي كلمة تنسحب على كل من يدعو إلى عبادة غير الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1].

وقد نزلت هذه الآية في حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، من زعماء يهود المدينة، عندما جاؤوا إلى مكة بعد غزوة بني النضير، يستنصرون بالمشركين على حرب رسول الله ﷺ والمسلمين، فأجابوهم وخرجوا معهم، مما أدى إلى غزوة الخندق أو الأحزاب.

روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العاني، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله هذه الآية[2].

﴿ويقولون للذين كفروا﴾ أي: يقولون لأجل الذين كفروا وفي حقهم.

﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ [٥١] أي: هؤلاء الذين يعبدون الأصنام أقوم ديناً وأرشد طريقة من محمد ومن معه من المؤمنين.

---

(١) البقرة: الآية ٢٥٧.

(٢) مختصر ابن كثير ٤٠٣/٩.

وسارعت الآيات بعد أن فضحتهم وحكت مقالتهم الشنيعة القبيحة، إلى كشف مصيرهم وبيان مآلهم:

﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ أي: أبعدهم من رحمته وطردهم من ساحات فضله.

﴿ومن يلعن اللَّهُ فلن تجد له نصيراً﴾ [٥٢] أي: لن تجد من يدفع عنه وينصره في الدنيا والآخرة.

ولهذا لن ينتفع اليهود بجيوش الأحزاب التي قدمت لنصرتهم، وعاد الأحزاب خائبين خاسرين، كما قال تعالى: ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾[1].

الكافرون برسالات الأنبياء

وانتقلت الآيات من ذمهم على تزكية أنفسهم، إلى ذمهم على بخلهم وشحهم:

﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ أي: لو كان لهم نصيب في السلطة والتصرف في توزيع الأرزاق على الناس.

﴿فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ [٥٣] أي: فعند ذلك يبخلون على الناس، ولا يعطون أحداً مقدار نقير.

والنقير: النقرة في ظهر النواة، وهو مثل في القلة كالفتيل، فالحمد لله الذي جعل تقسيم الأرزاق بيده، لا بيد أحد من عباده، فمن شأن الناس البخل والشح، بله اليهود أكثر الناس شحاً وأعظمهم حقداً وحسداً، وكيف يؤتون الناس شيئاً وهم البغاة الحسَدَةُ، الذين حسدوا النبي ﷺ على ما آتاه الله تعالى من النبوة والرسالة، وحسدوا المسلمين على التوفيق والهداية.

﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ والمراد بالناس محمد ﷺ وأصحابه، أو المراد محمد ﷺ وحده، وجاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد؛ لأنه عليه الصلاة والسلام اجتمع فيه من خصال الخير والبركة ما لا يجتمع مثله في جماعة، ومن هذا القبيل يقال: فلان أمة وحده، يعني أنه يقوم مقام أمة[2].

---

(١) الأحزاب: الآية ٢٥.

(٢) تفسير الخازن ٢/٩٨.

﴿فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ [٥٤] أي: فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل، وهم من ذرية إبراهيم، النبوة، وأنزلنا عليهم الكتاب، وأعطيناهم ملكاً كبيراً، حتىٰ جمع الله لبعضهم النبوة والملك كداود وسليمان عليهما السلام.

﴿فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه﴾ أي: ومع ذلك فمن اليهود من آمن بإبراهيم وما أنزل الله عليه وعلى الأنبياء والمرسلين من أولاده، ومنهم من أعرض عنه وكفر به وسعى في صد الناس عن دعوته.

﴿وكفىٰ بجهنم سعيراً﴾ [٥٥] أي: كفىٰ بالنار عقوبة لهم على كفرهم وجحودهم.

ولا شك أن الكفر برسالة نبينا محمد ﷺ كفر برسالة إبراهيم عليه السلام، فرسالة جميع الأنبياء واحدة، وهي الدعوة إلى الإسلام لله تعالى وتوحيده، قال تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[١]، وقال أيضاً: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾[٢].

من الحقائق العلمية في القرآن

وإمعاناً في الوعيد والتهديد، وصفت الآيات صورة من صور تسعر جهنم بهؤلاء المكذبين المعاندين:

﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً﴾ أي: سوف ندخلهم ناراً نشويهم فيها.

﴿كلما نضجت جلودهم﴾ أي: كلما احترقت جلودهم.

﴿بدلناهم جلوداً غيرها﴾ أي: أعدنا تلك الجلود غير محترقة، فالجلود تعاد في كل مرة، وإنما قال: ﴿جلوداً غيرها﴾ لتبديل صفتها، كما تقول: بدلت الخاتم قرطاً[٣].

---

(١) النحل: الآية ١٢٣.

(٢) آل عمران: الآية ٦٨.

(٣) انظر: تفاسير البيضاوي والخازن والنسفي ٩٩/١.

﴿ليذوقوا العذاب﴾ أي: ليدوم إحساسهم بالعذاب، فلا ينقطع بل يزيد، كما قال تعالى: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾[1].

ومن المعلوم أن المراكز العصبية في الجلد هي التي تنقل الإحساس والشعور بالألم إلى داخل النفس، فالآية تشير إلى حقيقة علمية كبيرة، ما كانت معروفة عند نزول القرآن الكريم.

﴿إن الله كان عزيزاً﴾ أي: غالباً على أمره، فعالاً لما يريد.

﴿حكيماً﴾ [٥٦] في كل ما قدر وحكم.

وقال تعالى في مقابل هذه الصورة المرعبة:

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي: من كل نقص وعيب يكون في نساء الدنيا، كالحيض والنفاس والأخلاق المذمومة.

﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾ [٥٧] أي: ظلاً ممتداً منبسطاً، في غاية الاعتدال.

فما أعجب هذا التقابل، وما أحكمه! إن له وقعاً قوياً على القلوب، ففي مقابل السعير المتأجج والجلود الناضجة المشوية، نرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات ندية، وظلال ممتدة رخية.

---

(١) النبأ: الآية ٣٠.

الفصل الثالث

الحكم بشريعة الله تعالى

أداء الأمانات وحفظ الحقوق

بهذا تكون الآيات الكريمة عملت لتفتح مغاليق العقول، وتزيل صدأ القلوب، وتطهر النفوس من رواسب الحسد والكبر والرياء، حتىٰ تهيئها لتقبل الأحكام العملية والمبادىء الأخلاقية، وها هي تصب فيها الآن مبدأ أخلاقياً رفيعاً، في تواصل الناس وتعاملهم، وأصلاً كبيراً هاماً من أصول التشريع والحكم في الإسلام، قال القرطبي رحمه الله: هذه الآية من أمهات الأحكام، تضمنت جميع الدين والشرع[1].

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فالآمر هو الله جل جلاله، والمأمورون جميع المكلفين، والأمر صريح ملزم، وهو أداء الأمانات إلى أصحابها، وهو يتناول حقوق الله تعالى على عباده، وحقوق العباد على بعضهم.

قال ابن كثير رحمه الله: وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه، لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك[2].

وقسم بعضهم الأمانات التي أمر الناس بأدائها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: رعاية الأمانة في عبادة الله عز وجل، وهو فعل المأمورات وترك المنهيات، قال ابن مسعود: الأمانة لازمة في كل شيء، حتىٰ في الوضوء والغسل من الجنابة والصلاة والزكاة والصوم وسائر أنواع العبادات.

الثاني: هو رعاية الأمانة مع نفسه، وهو ما أنعم الله به عليه من سائر أعضائه،

---

(١) تفسير القرطبي ٥/٢٥٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٠٥.

فأمانة اللسان حفظه من الكذب والغيبة والنميمة ونحو ذلك، وأمانة العين غضها عن المحارم، وأمانة السمع ألا يشغله بسماع شيء من اللهو والفحش، ثم سائر الأعضاء على نحو ذلك.

الثالث: هو رعاية أمانة العبد مع سائر عباد الله تعالى[1].

ويجب أداء الأمانات إلى أصحابها، ولو كانوا فجاراً فساقاً، فالإسلام يحفظ لجميع الناس حقوقهم، ومن الكلمات المأثورة عن علماء المسلمين: العقوق لا يمنع الحقوق، وكان ميمون بن مهران من علماء السلف يقول: ثلاث يؤدين إلى البر والفاجر: الرحم توصل برة كانت أو فاجرة، والأمانة تؤدى إلى البر والفاجر، والعهد يوفىٰ به للبر والفاجر[2].

ويؤكد هذا المعنىٰ قول النبي ﷺ: «أد الأمانة إلىٰ من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[3].

وقد نزلت هذه الآية يوم الفتح على النبي ﷺ، وهو في داخل الكعبة المعظمة، روى ابن جرير بسنده عن ابن جريج قال: نزلت في عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، قبض منه النبي ﷺ مفاتيح الكعبة، ودخل بها البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان، فدفع إليه المفتاح.

وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ، وهو يتلو هذه الآية: فداؤه أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك[4].

ولا شك أن الحكم بين الناس بالعدل من أعظم الأمانات وأثقل التبعات، التي يحملها الحكام والقضاة، فأداء الأمانات أساس التعامل الأول بين الناس في المجتمع، والحكم بالعدل أهم أسس نظام الحكم في الإسلام؛ ولهذا قرن تعالى بينهما فقال:

﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ أي: وإن الله تعالى يأمركم أن تحكموا بين الناس بالعدل، فعلىٰ الحاكم أن يأخذ الحق ممن وجب عليه، لمن وجب له، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة له بعد أن بويع بالخلافة:

---

(١) انظر: تفسير الخازن ٢/١٠١.
(٢) روح المعاني ٥/٦٤.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي.
(٤) تفسير الطبري ٥/١٤٥.

وإن أقواكم عندي الضعيف حتىٰ آخذ له بحقه، وإن أضعفكم عندي القوي حتىٰ آخذ منه الحق[1].

فولاية الناس في الإسلام مسؤولية جسيمة وكبيرة، وأمانة ثقيلة؛ ولهذا جاء الأمر بالعدل مقيداً بالحكم بين الناس، ولم يأت مطلقاً، كما هو الحال في أداء الأمانات، فهو كالتصريح؛ أنه ليس لجميع الناس أن يشرعوا في الحكم، بل ذلك لبعضهم ممن يصلح له ويقدر عليه[2].

وفي الحديث الشريف عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمّرنّ على اثنين، ولا تولين مال يتيم» وفي رواية أخرى قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده علىٰ منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»[3].

وفي مقابل ذلك، فإن للحاكم العادل الذي يقدر على حمل أمانة الحكم، ويؤدي الحقوق كاملة إلى رعيته، مكانة كبيرة عالية يوم القيامة، ففي الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[4].

فالعدل حق من أهم حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية، مهما كان هذا الإنسان.

﴿إن الله نِعِمّا يعظكم به﴾ أي: نعم الشيء الذي يعظكم الله به، آمراً ومذكراً.

فكلمة (يعظكم) تفيد الأمر والتذكير والنصح، وهذا الشيء هو أداء الأمانات والعدل في الحكومات، فالأمر إذاً خطير وكبير.

﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾ [٥٨] فراقبوه في أعمالكم وأماناتكم، فهو سبحانه سميع لأقوالكم، بصير بجميع أعمالكم وأحوالكم.

---

(١) حياة الصحابة ٣/٤٢٧.
(٢) انظر تفسير الرازي ١٠/١٤٦.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الإمارة (١٨٢٥).
(٤) صحيح مسلم، كتاب الإمارة (١٨٢٦).

طاعة أولي الأمر وتحكيم شريعة الله

ولا يقوم المجتمع العادل الذي يتمتع الناس فيه بكامل حقوقهم، إلا في ظل شريعة الله تعالى، وطاعة المحكومين للحاكم الملتزم بهذه الشريعة، وهو ما بينه تعالى من خلال ندائه للمؤمنين:

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله﴾ أي: الزموا طاعته في كل ما أمركم به ونهاكم عنه.

﴿وأطيعوا الرسول﴾ أي: أطيعوه أيضاً في كل ما أمركم به ونهاكم عنه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

وأعاد الفعل (أطيعوا) وإن كانت طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله تعالى؛ اعتناءً بشأنه عليه الصلاة والسلام وقطعاً لتوهم أنه لا يجب امتثال ما ليس في القرآن، وإيذاناً بأن له استقلالاً بالطاعة لم يثبت لغيره، ومن ثم لم يُعِدْه في قوله سبحانه:

﴿وأولي الأمر منكم﴾ إيذاناً بأنهم لا استقلال لهم فيها استقلال الرسول ﷺ[1].

وهم الحكام والقادة، وأضاف بعضهم إليهم العلماء، فطاعتهم مقيدة بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام.

وأكد هذا المعنىٰ سبب نزول الآية، فعن علي رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلىٰ. قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها. فهمّوا وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتىٰ خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، والطاعة في المعروف»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية[3].

---

(١) روح المعاني ٥/٦٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي (٤٣٤٠).

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٨٤).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1].

وعن أم الحصين قالت: حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فسمعته يقول: «إن أُمِّر عليكم عبد مجدَّع ـ أي مقطوع الأطراف ـ وحسبتها قالت: أسود، يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا»[2].

وقوله: ﴿منكم﴾ يدل على أن الحكام يجب أن يكونوا من المسلمين، فلا تجوز ولاية الكافر على المسلم، قال تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ كما سيأتي معنا.

فطاعة ولي الأمر واجبة على الرعية ما دام متمسكاً بالكتاب والسنة، فإذا زال عنهما فلا طاعة له، وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق[3].

﴿فإن تنازعتم في شيء﴾ أي: اختلفتم في شيء.

وكلمة (شيء) نكرة تفيد العموم، فالشريعة الإسلامية تلبي حاجاتكم التشريعية لكل شيء تتنازعون فيه.

﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ أي: فراجعوا فيه كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ.

﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي: إن كنتم تؤمنون بالله تعالى حقاً، وأنكم مسؤولون أمامه يوم القيامة، فيجب عليكم طاعته والاحتكام إلى دينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾[4]، فالحاكمية والتشريع في نظام الإسلام لله تعالى وحده، فهو سبحانه الخالق والمالك، وله الحكم في خلقه وملكه، كما قال سبحانه: ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[5].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأحكام (٧١٤٤).
(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة (١٨٣٨).
(٣) تفسير الخازن ٢/١٠٤.
(٤) الشورى: الآية ١٠.
(٥) الأعراف: الآية ٥٤.

ودلت الآية على أن الذي لا يرضىٰ بتحكيم شريعة الله تعالى، غير مؤمن، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتىٰ يحكموك فيما شجر بينهم﴾.

﴿ذلك خير﴾ أي: تحكيم شريعة الله تعالى بينكم، خير لكم من تحكيم الشرائع التي يشرعها البشر؛ لأنها شرائع ناقصة وغير عادلة، تتأثر بأهواء ومصالح واضعيها.

﴿وأحسن تأويلاً﴾ [٥٩] أي: وأحسن مرجعاً وعاقبة ومآلاً، فإن تحكيم شريعة الله يؤدي إلى إشاعة الأمن والعدل والسلام والتعاون بين أبناء المجتمع، كما يؤدي إلى الرخاء وسعة العيش، قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾[١] وقال أيضاً: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾[٢].

الإعراض عن تحكيم شريعة الله كفر ونفاق

فالرضا بأحكام الشريعة الإسلامية دليل على صحة الإيمان وصدقه، والإعراض عنها دليل على الكفر والنفاق، ولهذا قال تعالى:

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون﴾ أي: يدَّعون.

﴿أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ أي: من الشرائع الإلٰهية السابقة.

﴿يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوت﴾ أي: إلىٰ رأس من رؤوس الضلال والكفر.

﴿وقد أمروا أن يكفروا به﴾ أي: وقد أمرهم الله تعالى أن يكفروا بالطاغوت وبما يدعو إليه من شرك وضلال.

قال ابن كثير رحمه الله: هذا إنكار من الله عز وجل، على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية، أنها

---

(١) الأعراف: الآية ٩٦.
(٢) المائدة: الآية ٦٦.

في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف[1].

﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ [٦٠] ولهذا زين لهم الإعراض عن شريعة الله، والتحاكم إلى ما يشرعه طواغيت الكفر والضلال، مما يدل على أنهم وقعوا في حبائل الشيطان، فأسلموا أمرهم إليه، وأذعنوا لنزغاته ووساوسه، وكلما دعوتهم إلى الانقياد والتحاكم لشرع الله تعالى، أعرضوا مستكبرين:

﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلىٰ الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾ [٦١] أي: يعرضون عنك وعما تدعوهم إليه إعراضاً كاملاً، يدل على عنادهم وتكبرهم، ويدل على كذب ادعائهم الإيمان، فهم كذابون منافقون، أظهر إعراضهم عن تحكيم شريعة الله كفرهم ونفاقهم، ولهذا صرحت الآية بنفاقهم.

وما أكثر الذين تنسحب عليهم هذه الآيات، في المجتمعات الإسلامية، من الذين يعرضون عن شريعة الله تعالى، ويعارضون تحكيمها، ويسعون جاهدين إلى عزلها وحصرها في مجال العبادات الفردية الشخصية، مما يدل على أن النفاق قد استشرى كثيراً بين المسلمين.

أعذار واهية وأيمان كاذبة

ويؤدي الإعراض عن تحكيم شريعة الله تعالى، وتعطيل أحكامها، إلى البلاء والغلاء والفتن، وهو الواقع المشاهد في أكثر المجتمعات الإسلامية، وهو ما حذرنا سبحانه منه بقوله:

﴿فكيف﴾ أي: كيف يكون حال هؤلاء المعرضين عن شريعة الله تعالى.

﴿إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ أي: إذا نزلت بهم المصائب والنوازل بسبب إعراضهم عن شريعة الله، وتحكيمهم شرائع طواغيت الكفر والضلال.

﴿ثم جاؤوك﴾ أي: ثم يأتون إليك، حين يصابون؛ معتذرين.

﴿يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ [٦٢] أي: يحلفون بالله تعالى أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى غيرك الإساءة والمخالفة؛ بل أرادوا الإحسان والتوفيق، وهي

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٠٩.

دائماً دعوى كل من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته، إنها حجة الذين يزعمون الإيمان، وهم غير مؤمنين، وحجة المنافقين الملتوين، هي هي دائماً وفي كل حين، والله سبحانه يكشف عنهم هذا الرداء المستعار، ويخبر رسوله ﷺ، أنه يعلم حقيقة ما تنطوي عليه جوانحهم[1].

﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم﴾ أي: عن قبول عذرهم، دون أن تفضحهم؛ ليظلوا على وجل وحذر. أو: أعرض عنهم ولا تهتم بهم؛ فإن الله مجازيهم.

﴿وعظهم﴾ أي: ازجرهم عن النفاق والكفر والكذب، وخوفهم من عذاب الله تعالى يوم القيامة، وأن ما أصابهم في الدنيا من المصائب، شيء يسير بالنسبة لما ينتظرهم يوم القيامة إن أصروا على الكفر والنفاق.

﴿وقل لهم في أنفسهم﴾ أي: خالياً بهم، فإن النصيحة في السر أفجع وأقرب إلى القبول.

﴿قولاً بليغاً﴾ [٦٣] أي: قولاً مؤثراً، فكأنها تقول للنبي ﷺ: ابسط لهم لسان الوعظ، بمقتضى الشفقة عليهم، وانقبض بقلبك عن المبالاة بهم، والسكون إليهم، فما أعظم هذه الشريعة، وما أرحم أحكامها! إنها تأمر النبي ﷺ أن يعامل المعرضين عنها، هذه المعاملة الرحيمة الحكيمة، تأمره أن يبذل جهده في وعظهم وإرشادهم، وإنقاذهم من وحلة النفاق وشقوته، وسوء عاقبته، مع أخذ الحذر منهم، وعدم الاطمئنان إليهم.

طاعة الرسول وشفاعته

ثم قررت الآيات وجوب طاعة كل رسول أرسله الله تعالى، فالرسول ليس مجرد واعظ يلقي كلمته ويمضي، لتذهب في الهواء بلا سلطان، كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل، فللرسول سلطان ويجب أن يطاع، لكي يحقق المنهج الذي أرسله الله تعالى به[2].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٥/٦٩٥.
(٢) المرجع نفسه ٥/٦٩٥.

﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ أي: بأمر من الله تعالى، فطاعته طاعة لله تعالى، ومعصيته معصية لله تعالى، كما سيأتي عند قوله سبحانه: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

وفي هذا التقرير توبيخ للمعرضين عن طاعته عليه الصلاة والسلام.

وفتحت الآية بعد هذا التقرير والتوبيخ للمعرضين سبيلاً للتوبة، كما هو شأن القرآن الكريم دائماً، فبعد أن يحذر وينذر، وينبه إلى موضع الداء ومكمن الخطر، يدعو إلى الاستغفار والتوبة، فلا يأس من رحمة الله تعالى، ومهما كانت الذنوب كبيرة، فإن رحمته تعالى ومغفرته أوسع منها.

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ أي: بالنفاق والتحاكم إلىٰ شرائع الطواغيت.

﴿جاؤوك﴾ أي: تائبين من النفاق، نادمين على ما سلف منهم.

﴿فاستغفروا الله﴾ أي: سألوا الله تعالى أن يغفر لهم.

﴿واستغفر لهم الرسول﴾ بالشفاعة لهم، وسأل الله أن يغفر لهم ويقبل توبتهم.

والقياس يقتضي أن يقول: واستغفرت لهم، وإنما عدل الخطاب عنه تفخيماً لشأنه عليه الصلاة والسلام، وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب، وإن عظم جرمه، ويشفع له[1].

فإذا جاؤوك فقد جاؤوا من خصه الله برسالته، وجعله سفيراً بينه وبين خلقه، ومن كان كذلك فإن الله تعالى لا يرد شفاعته، فلهذا السبب عدل إلى طريقة الالتفات، من لفظ الخطاب إلىٰ لفظ الغيبة[2].

﴿لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ [٦٤] أي: لعلموا أن الله يقبل توبتهم ويرحمهم. ثم أقسم تعالى بذاته المقدسة، وأضافها إلى ضمير الخطاب الموجه إلى النبي ﷺ تكريماً له وتشريفاً، على انتفاء إيمانهم حتى ينقادوا لحكمه عليه الصلاة والسلام انقياداً كاملاً ويسلموا له تسليماً مطلقاً:

﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ أي: فوربك لا يؤمنون، وزيدت (لا) لتأكيد معنى القسم.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/١٠٨.

(٢) تفسير الخازن ٢/١٠٨.

﴿حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ أي: فيما اختلفوا فيه من الأمور، ووقع بينهم تنازع بشأنه، ومنه الشجر لتداخل أغصانه.

﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾ أي: لا يجدوا في أنفسهم أي ضيق وانزعاج من حكمك، بل يرضوا بما حكمت.

﴿ويسلموا تسليماً﴾ [٦٥] أي: وينقادوا لك انقياداً ظاهراً وباطناً.

فلا يصح إيمان أحد بالله تعالى إلا إذا آمن بالنبي ﷺ وانقاد لحكمه انقياداً كاملاً كما قال تعالى: ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾[١].

وذكروا في سبب نزول هذه الآية أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شِراج الحرّة[٢] التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرِّح الماء يمر، فأبى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير: اسقِ يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك. فغضب الأنصاري فقال: أَنْ كان ابن عمتك، فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر[٣]. فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾[٤].

ومن المعلوم أن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم، وحكم هذه الآية باق إلى يوم القيامة وليس مخصوصاً بالذين كانوا في عصر النبي ﷺ، فإن قضاء شريعته عليه الصلاة والسلام قضاؤه[٥].

يسر الشريعة وسماحتها

ثم بينت الآيات يسر الشريعة الإسلامية وسماحتها وأنه تعالى ما كلفنا فيها التكاليف الشاقة، فما كلفنا إلا طاعة الرسول ﷺ والتمسك بسنته:

---

(١) النور: الآية ٥١.

(٢) أماكن مسيل الماء في الحرّة.

(٣) الحواجز التي تحبس الماء.

(٤) صحيح البخاري في كتاب المساقاة رقم ٢٣٥٩.

(٥) روح المعاني ٥/٧١.

﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾ أي: لو أنه سبحانه فرض علينا التكاليف الشاقة الصعبة كقتل النفس والخروج من الديار.

﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ أي: ما فعل هذا التكليف إلا قليل من المؤمنين.

لقد علم تعالى ضعفنا فرحمنا، وأرسل إلينا هذا الرسول الكريم الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[1]، والذي وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها[2].

﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ أي: ما يؤمرون به من طاعة الرسول ﷺ والتمسك بشريعته ﴿لكان خيراً لهم﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وأشد تثبيتاً﴾ [٦٦] أي: ثباتاً على الإيمان وعلى التمسك بشريعة الإسلام، فإن يسر الشريعة وسهولة تكاليفها يستدعي التمسك بها والثبات عليها، فلا عذر لأحد في تركها وهجر أحكامها ولهذا كان ﷺ يوصي بالاعتدال في العبادة وينهى عن التشدد والغلو فيها، ففي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: من هذه؟ قالت: فلانة، تذكر من صلاتها[3] قال: مه عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا. وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه[4].

﴿وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ [٦٧] أي: وفي حال ثباتهم على الدين وتمسكهم بشريعته نعطيهم من عندنا أجراً عظيماً، لا يعلم مقداره إلا معطيه وهو الله جلّ جلاله.

﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ [٦٨] أي: ونوفقهم أيضاً للسير على الصراط المستقيم الذي يصلون به إلى أعلى المراتب التي تتطلع إليها نفوس المؤمنين الصالحين والشهداء والصديقين.

---

(١) التوبة: الآية ١٢٨.
(٢) صحيح البخاري في المناقب ٣٥٦٠.
(٣) أي يذكرون أن صلاتها كثيرة وأنها لا تنام في الليل.
(٤) صحيح البخاري في الإيمان ٤٣.

الرفيق الأعلى

واستمرت الآيات ترغب المؤمنين في طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام والتمسك بشريعته وسنته، وتطمعهم بمرافقه أكرم الخلائق في أرفع المراتب وأعلاها يوم القيامة:

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين﴾ أي: المبالغين في الصدق والإخلاص في أقوالهم وأفعالهم، وهم خواص المقربين من الأنبياء كأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿والشهداء﴾ وهم الذين بذلوا أرواحهم في طاعته تعالى وإعلاء كلمته.

﴿والصالحين﴾ أي: المتمسكين بشريعته وسنته، فلا صلاح للإنسان إلا إذا التزم بشرع الله تعالى وتمسك بسنة النبي ﷺ.

﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ [٦٩] أي: وما أحسن صحبة هؤلاء ومرافقتهم، في الملأ الأعلى في الجنة، فالرفيق الصاحب مأخوذ من الرفق وهو لين الجانب واللطف في المعاشرة.

فطاعة الرسول ﷺ مفتاح الوصول إلى المقامات العالية الرفيعة، مقامات النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وكفاه عليه الصلاة والسلام بذلك شرفاً وتكريماً قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾[1].

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: سل، فقلت أسألك مرافقتك في الجنة قال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»[2].

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[3].

---

(١) آل عمران: الآية ٣١.

(٢) صحيح مسلم في الصلاة ٤٨٩.

(٣) المرجع نفسه في كتاب الجنة ٢٨٣١.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[1].

﴿ذلك الفضل من الله﴾ أي: بلوغهم هذه المراتب الرفيعة في الجنة فضل تفضل الله تعالى به عليهم.

﴿وكفى بالله عليماً﴾ [٧٠] أي: بعباده وأعمالهم وما يتفضل به عليهم، فما نالوا هذه الدرجات العالية إلا بفضله سبحانه عليهم، فلا ينبغي لأحد أن يغتر بعمله ويعجب بعبادته، الله سبحانه وفقهم إلى هذه العبادات والطاعات وأعانهم عليها فالفضل منه سبحانه أولاً وآخراً وفي الحديث الشريف عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت قال رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدخل الجنة أحداً عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قلّ»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) صحيح مسلم في المنافقين ٢٨١٨.

الفصل الرابع

التكليف بالجهاد والحض عليه

تحذير ونفير

وما دام الناس معرَّضين لهذه الآفات النفسية الخطيرة التي تدفعهم إلى الاختلاف والتنازع وإلى البغي والعدوان، فلا مناص من تكليف المؤمنين بالقتال وحثهم على الجهاد، لكي يتمتعوا بحقوقهم ويعيشوا بسلام واطمئنان، فما أكثر ما يفرض السلام بالقوة، وهو ما يسمى في عصرنا الحاضر عند رجال السياسة التوازن الاستراتيجي، فإذا ما اختل هذا التوازن وتفوقت إحدى القوى على غيرها أصبح السلام في خطر، وتعرضت حقوق الناس للعدوان والظلم.

ولهذا توجهت الآيات الكريمة بخطابها إلى المؤمنين تناديهم محذرة ومستنفرة:

﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾ أي: الحذر الحذر، وهو لا يكون إلا من مخوف وخطر، يقال: أخذ حذره، إذا تيقظ واحترز من المخوف، كأنه جعل الحذر آلته التي يقي بها نفسه ويعصم بها روحه، والمعنى احذروا واحترزوا من العدو[1]. والحذر يكون بالانتباه والاستعداد والأخذ بأسباب القوة والوقاية والحيطة كما في قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[2] وبعد التحذير أمر سبحانه بالنفير:

﴿فانفروا﴾ أي: اخرجوا للجهاد وقتال الأعداء.

﴿ثُباتٍ﴾ أي: متفرقين، جماعةً بعد جماعة وسرية بعد سرية، وهذا عندما لا يكون الخطر كبيراً، فيكفي حينئذ أن يخرج للقتال بعض أفراد الأمة، وينصرف الآخرون إلى الاهتمام بمتطلبات الحياة الأخرى كما قال تعالى: ﴿وما كان المؤمنون

---

(١) تفسير النسفي ٢/١١٣.

(٢) الأنفال: الآية ٦٠.

لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[1].

﴿أو انفروا جميعاً﴾ [٧١] أي: اخرجوا إلى الجهاد مجتمعين إذا كان النفير عاماً، وذلك عندما يكون الخطر كبيراً، ويحتاج إلى حشد كل طاقات الأمة القتالية، فحينئذ يكون الجهاد فرض عين على كل قادر عليه كما في قوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[2].

المتقاعسون عن الجهاد

ولا تخلو أمة أو مجتمع عن الجبناء المتقاعسين عن القتال، ولهذا اتجهت الآيات إلى الحديث عنهم ووصف أحوالهم وبيان مواقفهم، فهم ثغرة كبيرة في جسم الأمة يجب المبادرة إلى سدها وإحكام إغلاقها، وإلا تسرب العدو منها إلى مقاتل الأمة فأجهز عليها.

﴿وإن منكم لمن ليبطئن﴾ أي: ليتثاقلنّ وليتخلفن عن الخروج إلى الجهاد، من بطأ بمعنى أبطأ، أو ليُبطئن غيره ويثبطه، من بطأ منقولاً من بطؤ[3] كما قال تعالى: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً﴾[4] والواقع فإن التباطؤ والتقاعس عن الجهاد يؤدي إلى تشجيع الآخرين على التباطؤ والتقاعس.

﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ أي: أصابتكم في الجهاد مصيبة كهزيمة أو قتل.

﴿قال﴾ أي: المتباطىء المتخلف عن الجهاد.

﴿قد أنعم الله عليّ﴾ أي: بالقعود والتخلف فإنه يرى التخلف عن الجهاد نعمة من الله، مع أنه معصية كبيرة.

﴿إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ [٧٢] أي: حاضراً مع المجاهدين في المعركة فلو كنت معهم لأصابني مثل ما أصابهم.

---

(١) التوبة: الآية ١٢٢.
(٢) التوبة: الآية ٤١.
(٣) انظر تفسير أبو السعود ٢/٢٠٠.
(٤) الأحزاب: الآية ١٨.

هكذا اختلت نظرته إلى الأمور فرأى التخاذل والجبن نعمة من نعم الله تعالى عليه.

﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ أي: فانتصرتم وغنمتم.

﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ أي: كأنه غريب عنكم ولا صلة بينكم وبينه.

﴿يا ليتني كنت معهم﴾ أي: كنت مع المجاهدين في ميدان القتال.

﴿فأفوز فوزاً عظيماً﴾ [٧٣] أي: فأنال نصيباً وافراً من الغنيمة.

فهو يتحسر على الكسب المادي الذي فاته بسبب تخلفه عن الجهاد، لا على ما فاته من ثواب الجهاد وشرفه، وكأن الآية تكشف سبب جبنه وتخلفه عن الجهاد، إنه الحرص على المنافع المادية والتعلق بالشهوات الأرضية الفانية، وهذا ما صرحت به الآيات الكريمة في موضع آخر بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾[1].

وأعرضت الآيات عن المتخلفين والتفتت إلى المجاهدين تحضهم على الجهاد وتبين لهم الثواب العظيم الذي أعده الله لهم:

﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة فكلمة (يشرون) من ألفاظ الأضداد وقد جاءت بمعنى البيع أيضاً في قوله تعالى: ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾[2].

فهم الذين تعلقت قلوبهم وأرواحهم بالآخرة فآثروها على الدنيا، فإن تقاعس هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في سبيل الله طلباً لرضوانه وفسيح جنانه.

﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوق نؤتيه أجراً عظيماً﴾ [٧٤] أي: فللمجاهدين الأجر العظيم والثواب الجزيل في حال استشهادهم أو في حال فوزهم على عدوهم وانتصارهم.

---

(١) التوبة: الآية ٣٨.

(٢) يوسف: الآية ٢٠.

فليس أمام المجاهدين في أرض المعركة إلا إحدى الحسنيين الشهادة أو النصر كما جاء في الحديث الشريف: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقاً برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»[1].

وجوب مساعدة المستضعفين

وتابعت الآيات حض المسلمين على الجهاد والثبات مع بيان مقصد آخر من مقاصده في الإسلام، وهو نصرة المستضعفين وتخليصهم من المجتمعات الظالمة التي لا يتمتع الإنسان فيها بحقوقه الإنسانية وكرامته.

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين﴾ أي: وفي سبيل مساعدة المستضعفين، فإن مساعدة المستضعفين وتخليصهم من أيدي الظالمين جهاد في سبيل الله، فهو من قبيل عطف الخاص على العام.

والمراد بهم الذين يعيشون تحت قهر الظَّلَمة وفي سلطانهم كالذين لم يتمكنوا من الهجرة من ضعفاء المسلمين، وقد كان الرسول ﷺ كثير الاهتمام بهم حتى كان يدعو لهم في صلاته، ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده، ثم قال قبل أن يسجد: اللهم نج عياش بن أبي ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها سنين كسني يوسف»[2].

وتدل الآية أن على المسلمين أن يساعدوا الجاليات المسلمة المستضعفة التي تعيش في بلاد الكفر، حتى يتمتعوا بحقوقهم كاملة ويؤدوا العبادات المفروضة عليهم بحرية، فإن كثيراً من الجاليات المسلمة لا تتمتع بأبسط الحقوق الإنسانية، ففي البلاد الغربية التي يرفع أهلها شعارات المحافظة على حقوق الإنسان يمنع المسلمون من رفع أصواتهم في الأذان، ويضيقون على المرأة المسلمة التي تلبس الملابس الإسلامية الساترة كما يضيقون عليهم في أسباب كسبهم ومعاشهم.

---

(١) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم في الإمارة ١٨٧٦.

(٢) صحيح البخاري في التفسير ٤٥٩٨.

﴿من الرجال والنساء والولـدان﴾ وهو بيان للمستضعفين وأصنافهم، وذكرت الآية الولدان تكميلاً للإثارة والحض على دفع الظلم عنهم، وتنبيهاً على شدة الظلم الواقع عليهم حتى وصل إلى أطفالهم. وفيه إشارة أيضاً إلى أن الإسلام يحفظ حقوق جميع الناس صغاراً وكباراً ذكوراً وإناثاً.

﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ أي: الذين ظلم أهلها بالكفر والشرك والعدوان على حقوق المستضعفين، ودل دعاؤهم هذا على أنهم كانوا متبرمين من الإقامة فيها ويتمنون مغادرتها بسبب ما يلقون فيها من ظلم وعدوان.

﴿واجعل لنا من لدنك ولياً﴾ أي: اجعل لنا ولياً يتولى أمرنا ويستنقذنا من أعدائنا.

﴿واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ [٧٥] أي: ينصرنا عليهم.

كانوا يدعونه بالخلاص ويستنصرونه، فيسر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة وبقي بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من لدنه خير ولي وناصر، وهو محمد عليه الصلاة والسلام، فتولاهم أحسن التولي ونصرهم أقوى النصر[1].

بين غايتين

ثم عقدت الآيات مقارنة بين الغاية الأساسية للقتال عند المسلمين، وبين غاية القتال عند المشركين؛ إبرازاً لنبل وسمو غاية القتال عند المسلمين، وهو أسلوب جديد اتبعته الآيات لحث المسلمين على القتال، بتعريفهم بغايته النبيلة، إذ الأشياء تعرف بأضدادها:

﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ وشتان ما بين الغايتين والمقصدين، بين الذين يقاتلون لرفع كلمة الله في الأرض، ونشر دين الحق وشريعة العدل والسماحة، وبين الذين يقاتلون من أجل رؤوس الشرك والكفر والظلم ودعاة الضلال والفساد.

﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ أي: فقاتلوا يا جند الرحمن، أتباع الشيطان وأنصاره وجنوده، ولا تخافوا منهم ومن مكرهم وكيدهم واحتيالهم.

---

(١) تفسير النسفي ٢/١١٦.

﴿إن كيد الشيطان﴾ وهو رأس الطواغيت.

﴿كان ضعيفاً﴾ [٧٦] لأنه تعالى يؤيدكم وينصركم.

ولا يعني هذا الاستهانة بمكر الأعداء، فمكرهم في حد ذاته كبير وخطير، كما قال تعالى: ﴿وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾[١] فعلينا واجب الحذر منه والعمل على كشفه وإبطاله.

وعادت الآيات إلى أسلوب التعجيب، التعجيب من أحوال هؤلاء الجبناء المتقاعسين عن القتال، والذين كان بعضهم قبل التكليف به ونزول آياته يطلبونه ويتشوقون إليه، فلما كلفوا به جبنوا وتقاعسوا عنه:

﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ أي: عن القتال.

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي: اشتغلوا بما أمرتم به من الطاعات كالصلاة والزكاة، فلا ينبغي للمؤمن أن يتعرض للبلاء ويتمناه، فقد يجزع ويضعف عند لقائه، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ثم قال: اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»[٢].

﴿فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ أي: يخافون من قتال الكفار كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه، لا شكاً في الدين ولا رغبة عنه، ولكن نفوراً عن الأخطار بالأرواح، وهذه خشية طبع، لا أن ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقاداً، فالمرء مجبول على كراهة ما فيه هلاكه غالباً[٣].

ويمكن صدور مثل هذا الشعور عن أي إنسان بحكم جبلته وأصل فطرته، قال تعالى يصف حال بعض المؤمنين عندما توجه النبي ﷺ إلى بدر: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾[٤].

---

(١) إبراهيم: الآية ٤٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد (٢٩٦٦).

(٣) تفسير النسفي ٢/١١٨.

(٤) الأنفال: الآيتان ٥ ـ ٦.

وقد تكون هذه الآيات في المنافقين، فإن التكليف بالقتال يمحص المؤمنين، ويميز بينهم وبين المنافقين، كما قال تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم﴾[1] ويؤكد هذا المعنىٰ ما حكاه سبحانه بعد ذلك من أقوالهم:

﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال﴾ فمثل هذا القول لا يصدر عن المؤمنين؛ إذ فيه اعتراض على حكم شرع الله تعالى، وإن كان بعض المفسرين رأى أنه سؤال عن وجه الحكمة في فرض القتال عليهم، لا اعتراض لحكمه[2].

لكن يضعف هذا الرأي سؤالهم تأخير تكليفهم بالقتال:

﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ أي: هلا تركتنا ولم تفرض علينا القتال، حتىٰ نموت بآجالنا، والقائلون لهذا القول هم المنافقون، لأن هذا القول لا يليق بالمؤمنين[3].

﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ أي: تمتعكم بالدنيا قصير؛ لأنها فانية زائلة، وهذا يدل على أن تعلقهم بالدنيا هو الذي حملهم على التثاقل عن القتال والخشية منه.

﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾ أي: اتقىٰ الله تعالى بطاعته، وبادر إلى تنفيذ أمره، مجاهداً في سبيله.

﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾ [٧٧] أي: ولا تنقصون من أجوركم شيئاً قليلاً، ولو قدر فتيل، كما قال تعالى: ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم * إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾[4].

ودلت الآيات على أن أحكام الشريعة الإسلامية لا تتأثر بعواطف الناس، ولا تستجيب لموجات الحماس الآنية التي تطرأ عليهم، إنها تشريع العليم الحكيم الخبير.

---

(١) محمد: الآية ٢٠.
(٢) تفسير النسفي ٢/١١٨.
(٣) تفسير الخازن ٢/١١٨.
(٤) محمد: الآيتان ٣٥ ـ ٣٦.

تطير ونفاق

ثم ذكرتهم الآيات بحقيقة يعرفونها، لكنهم يغفلون عنها في غمرة انشغالهم بالدنيا وتعلقهم بما فيها:

﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ أي: ينزل بكم الموت، فلا نجاة لكم منه، فالأجل مقدر، والتباطؤ عن الخروج إلى الجهاد لا يمنع منه.

والتعبير بـ ﴿يدرككم﴾ يدل على شدة تباعدهم عن أسباب الموت، وهو قريب جداً منهم، فهم مجدون في الهرب منه، وهو مجد في طلبهم، لا يفتر نفساً واحداً في التوجه إليهم[1].

فحال الموت معهم طالب ومطلوب، والمطلوب لا يفوت الطالب مهما أمعن بالهرب والفرار.

﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ أي: ولو كنتم في حصون مرفوعة عالية، فالله سبحانه قدر لكل نفس موعداً مع الموت فقال: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾[3].

ومن عادة الجبناء المتقاعسين عن القتال، كثرة التشاؤم والتطير وتوقع المكروه، وهو أمر مذموم، حكاه الله تعالى عن المعارضين لدعوة الأنبياء كقوم فرعون، فقال: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسىٰ ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾[4]، وذكره أيضاً سبحانه من قول أصحاب القرية التي جاءها المرسلون: ﴿قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم﴾[5].

وذكره سبحانه هنا من أقوال أعداء النبي ﷺ من يهودالمدينة والمنافقين فيها:

﴿وإن تصبهم حسنة﴾ أي: ما تحسن أحوالهم به في الدنيا، كالنصر والسعة في العيش والرخاء.

---

(١) روح المعاني ٥/٨٧.
(٢) آل عمران: الآية ١٨٥.
(٣) الزمر: الآية ٣٠.
(٤) الأعراف: الآية ١٣١.
(٥) يس: الآية ١٨.

﴿يقولوا هذه من عند الله﴾ أي: ينسبوها إلى الله تعالى.

﴿وإن تصبهم سيئة﴾ أي: ما تسوء بها أحوالهم كالهزيمة والقحط وغلاء الأسعار.

﴿يقولوا هذه من عندك﴾ أي: ينسبوها إلى النبي ﷺ، ويضيفوها إليه، قائلين: ما حصلت إلا بشؤمك.

﴿قل كل من عند الله﴾ أي: كل من الخير والشر بقضاء الله تعالى وقدره، فهو سبحانه خالق كل شيء، كما قال: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾[1].

﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ [٧٨] أي: لا يكادون يفهمون حديثاً. وهو تقبيح لحالهم، وتعجيب من شدة غباوتهم.

ولما كان الموضوع يتصل بأمر هام من أمور الاعتقاد، فصله سبحانه بعدما أجمله، حتىٰ لا يبقىٰ فيه أدنىٰ لبس أو غموض، فقال:

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ أي: فمنه سبحانه خلقاً وإحساناً وتفضلاً.

﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ أي: منك أيها الإنسان تسبباً واستجلاباً، فهو كقوله في موضع آخر: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[2].

فالمصائب والبلايا منا تسبباً، ومن الله تعالى خلقاً وإيجاداً وتقديراً، كما قرر فيما سبق ﴿قل كل من عند الله﴾.

﴿وأرسلناك للناس رسولاً﴾ أي: إن الله تعالى أرسلك رسولاً للناس تبين لهم دين الله وشرعه، ولا علاقة لك في الحوادث ولا تأثير لك عليها، فهو رد على قولهم عندما تصيبهم السيئة: ﴿هذه من عندك﴾، وفيه دليل أيضاً على عموم رسالته عليه الصلاة والسلام، فهو رسول إلى كل الناس، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[3].

---

(١) الزمر: الآية ٦٢.
(٢) الشورىٰ: الآية ٣٠.
(٣) سبأ: الآية ٢٨.

﴿وكفىٰ بالله شهيداً﴾ [٧٩] على صدق نبوتك وعموم رسالتك.

وأوجب الله تعالى طاعته عليه الصلاة والسلام، وجعلها طاعة له سبحانه؛ تأكيداً لصدق رسالته وصحة نبوته، فقال:

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام المبلغ عن الله تعالى.

﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ [٨٠] أي: تحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

ويجب الإخلاص في طاعة الرسول ﷺ، كالإخلاص في طاعته تعالى، في القول والعمل والسر والعلن، ولا ينبغي أن تكون طاعته عليه الصلاة والسلام كطاعة المنافقين، الذين كانوا يتظاهرون أمامه بالانقياد والطاعة، ويضمرون في قلوبهم مخالفته ففضحهم تعالى بقوله:

﴿ويقولون طاعة﴾ أي: يقولون إذا أمرتهم بأمر: أمرك طاعة.

﴿فإذا برزوا من عندك﴾ أي: خرجوا من عندك.

﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ أي: أضمر فريق منهم مخالفة أمرك، فالتبييت كل أمر يفعل بالليل.

أو من الإعداد والتزوير بالنفس، كما يفعل الشاعر عندما يبيت ما يقول شعراً في نفسه، والمراد أنهم يضمرون خلاف ما يظهرون.

﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ لأنه تعالى عليم بذات الصدور، ويكتبه عليهم ليجازيهم عليه.

﴿فأعرض عنهم﴾ أي: لا تبال بهم، فإنهم لا يضرون بذلك إلا أنفسهم.

﴿وتوكل على الله وكفىٰ بالله وكيلاً﴾ [٨١] أي: كفىٰ به سبحانه ولياً وناصراً وحافظاً ومعيناً لمن توكل عليه.

التحدي بمعاني القرآن الكريم

ومن الطبيعي بعد أن وصفتهم الآيات بقلة الفهم، في قوله تعالى الذي مر معنا:

﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ أن تدعو الناس إلى إعمال الفكر في آيات القرآن الكريم؛ لفهم معانيها، والاسترشاد بهديها:

﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ أي: يتأملون في معانيه، ويتبصرون في مباينه.

والتدبر: التأمل والنظر في أدبار الأمر، وما يؤول إليه في عاقبته، ثم استعمل في كل تأمل وتفكر[1].

ولا يخفىٰ ما في الآية من تحدٍ للمعاندين المخالفين، فهذه دعوة قرآنية تدعو المتشككين في صحته وصدقه، إلى التأمل والتفكر في معانيه، فشواهد صدقه وصحته فيه، ومخالفتهم للقرآن وتشككهم في صحته، نتيجة قصورهم عن فهم آياته، فالعيب فيهم والقصور منهم؛ ولهذا قال سبحانه في موضع آخر: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[2].

فمعاني القرآن الكريم بارزة واضحة، وقلوبهم هي المقفلة دون فهمها وإدراكها.

﴿ولو كان من عند غير الله﴾ أي: كما يزعم الكفار والجاحدون.

﴿لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [٨٢] أي: لوجدوا فيه تناقضاً وتفاوتاً كثيراً، كما هو حال كلام البشر، فلا يوجد متكلم يتكلم كثيراً، إلا وقع في كلامه اختلاف كثير وتضارب، كالتفاوت في اللفظ، أو التناقض في المعنىٰ، أو مخالفة الحقيقة والواقع، بينما القرآن الكريم كله في أعلىٰ درجات البلاغة، يشبه بعضه بعضاً، ويكمل بعضه بعضاً، ويُفسر بعضه بعضاً، كما قال تعالى في وصفه: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾[3].

فلا يوجد فيه أدنىٰ تناقض وتفاوت واضطراب، ودل ذلك على أنه كلام الحكيم العليم، ﴿وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[4].

---

(١) تفسير النسفي ٢/١٢٣.
(٢) محمد: الآية ٢٤.
(٣) الزمر: الآية ٢٣.
(٤) فصلت: الآيتان ٤١ ـ ٤٢.

التحذير من نشر الإشاعات

ومن عادة الجبناء المتقاعسين عن القتال، إشاعة الأكاذيب ونشر الأراجيف، وهو أمر مذموم، يستفيد منه الأعداء كثيراً في أوقات الحروب والأزمات، وللإشاعات في العصر الحاضر تأثير كبير على سير القتال ونتائجه، ويسمون ذلك الحرب الإعلامية، وقد اهتمت بها الدول كثيراً، ورصدت لها الأموال الضخمة، وحشدت لأجلها كثيراً من المختصين بها، وبين سبحانه وتعالى خطرها وأهميتها بقوله:

﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ أي: إذا وصل إلىٰ مسامعهم أي خبر يوجب أمناً أو خوفاً، بادروا إلى إذاعته بين الناس قبل التثبت من صحته، وكثيراً ما يعمد العدو إلى إشاعة أخبار كاذبة عن هزيمته وضعفه، فيأمن الناس ويتركون أسباب الحذر والحيطة، فيباغتهم بهجومه، أو يشيع أخباراً عن هزيمة لحقت سرية من سرايا المسلمين، تؤدي إلى انتشار الذعر والخوف والاضطراب في سائر صفوف المسلمين وجنودهم، فيستفيد العدو من ذلك أيضاً، والواجب في مثل هذه الأحوال السكوت وعدم إذاعة وإشاعة ما تسمع.

وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كفىٰ بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»[1].

والواجب أيضاً التثبت من صحة الأخبار، وذلك بسؤال أهل الخبرة والاختصاص، ولهذا قال تعالى:

﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم﴾ أي: إلىٰ أصحاب الاختصاص الذين يعرفون حقيقة ما يذاع ويشاع.

﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ أي: لعلم حقيقة هذا الخبر أهل التدبير والفطنة والتجربة، وهم المختصون بمعرفة مكايد العدو في الحروب.

والاستنباط: من النبط، وهو الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر، واستنباطه استخراجه فاستعير لما يخرجه الرجل بفضل ذكائه وصفاء ذهنه وفطنته من المعاني[2].

---

(١) صحيح مسلم في المقدمة (٥).
(٢) تفسير الخازن ٢/١٢٤.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي: بما شرع لكم من أسباب السلامة والوقاية ونبهكم وحذركم من مكايد عدوكم.

﴿لاتبعتم الشيطان﴾ أي: لوقعتم في شراك الشيطان وحبائل أعوانه من شياطين الإنس والجن.

﴿إلا قليلاً﴾ [٨٣] أي: إلا قليلاً من ذوي الفطانة والذكاء والمعرفة والتجربة، وهم أهل البصائر النافذة والعزائم المتمكنة والنيات الخالصة من أفاضل المؤمنين الذين يعلمون أنه ليس من شرط كون الدين حقاً حصول الدولة في الدنيا، أو باطلاً حصول الانكسار والانهزام، بل مدار الأمر في كونه حقاً وباطلاً على الدليل[١].

وفي الآية حث على الوقاية والحذر من مكايد العدو، وذلك برصد حركاته ووسائل إعلامه ودراسة كل ما يصدر عنه من إذاعات وإشاعات لمعرفة مقاصده وأهدافه القريبة والبعيدة، فالقرآن الكريم يربي المسلمين ويهيئهم لظروف الحرب والسلم.

وفيها إشارة أيضاً إلى أن استنباط الحقائق والأحكام من مظانها يتصدى له المختصون من العلماء، فهو فن من الفنون لا يحسنه إلا أصحاب الدراية والاختصاص، كما جاء في الحديث الشريف أنه ﷺ قال في خطبة الوداع: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعىٰ له منه»[٢] وفي رواية أخرى بلفظ: ربَّ مُبلغ أوعىٰ من سامع.

التحريض على القتال

ولما فرغت الآيات من وصف مواقف المتقاعسين عن القتال والجهاد، التفتت فجأة إلى النبي ﷺ تأمره أن يقاتل في سبيل الله وحده، وبهذا تعود الآيات إلى ما سبق من التحريض على القتال بأسلوب جديد:

﴿فقاتل في سبيل الله﴾ أي: ولو تخلف عن القتال معك الجبناء المتقاعسون.

﴿لا تكلف إلا نفسك﴾ أي: لا يضرك قعودهم وتقاعسهم فتقدم إلى الجهاد وإن لم يخرج معك أحد فإن النصر من الله تعالى لا من الجنود.

---

(١) روح المعاني ٥/٩٥.

(٢) صحيح البخاري في العلم ٦٧.

وما كان سبحانه وتعالى ليأمره بشيء إلا وهو كفء له، فهو ﷺ مليء بمقاتلة الكفار كلهم وحده، وإن كانوا أهل الأرض كلهم[1].

والجدير بالذكر أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم لم يتخلفوا عن الخروج إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ بل كانوا يحرصون حرصاً شديداً على الخروج معه، حتى أن بعضهم كان يبكي أسفاً وحزناً إذا لم يتمكن من الخروج معه إلى الجهاد، وقد خلّد تعالى في التنزيل الحكيم دموعهم بقوله سبحانه: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾[2] وكان ﷺ يتخلف أحياناً عن الخروج إلى الجهاد مواساة لهم، ويقول في ذلك: «والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني»[3] فما كان يتخلف عن الخروج إلى الجهاد معه عليه الصلاة والسلام إلا المنافقون وأصحاب الأعذار وثلاثة فقط من غير المنافقين وأصحاب الأعذار تخلفوا عنه في غزوة تبوك، وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خُلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾[4].

وقد شهد تعالى بجهاد الصحابة رضي الله عنهم مع رسوله عليه السلام بقوله الكريم: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم﴾[5].

وأكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وحَرِّضِ المؤمنين﴾ أي: رغبهم في القتال وشجعهم عليه، كما قال في الأنفال ﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾[6] الآية. وفي هذا دليل على أن من واجب أمير الجند الاهتمام برفع معنويات جنوده فإنه يؤدي إلى ثباتهم واستبسالهم،

---

(١) نظم الدرر ٥/٣٤٥.
(٢) التوبة: الآية ٩٢.
(٣) انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم في الإمارة ١٨٧٦.
(٤) التوبة: الآية ١١٨.
(٥) الأنفال: الآيتان ٦٢ ـ ٦٣.
(٦) الأنفال: الآية ٦٥.

ويسمونه في العصر الحاضر التوجيه المعنوي، أو التعبئة النفسية.

وكان ﷺ يفعل ذلك، ففي الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال في ميدان المعركة في غزوة بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» فسمعه عمير بن الحمام الأنصاري فقال: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم قال: بخٍ بخٍ فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قَرَنه (أي جعبته) فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى أكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل»[1].

وكان قادة الجند من الصحابة يفعلون ذلك فقد روي عن أبي موسى الأشعري أنه قال لجنده وهم يواجهون العدو: قال رسول الله ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» فقام رجل رثُّ الهيئة فقال: يا أبا موسى آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل[2].

﴿عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا﴾ أي: لعل الله أن يكف قوة الكفار وشدتهم بثبات المؤمنين واستبسالهم، وكلمة (عسى) تفيد بالنسبة لله تعالى تحقق الوقوع.

﴿والله أشد بأساً﴾ أي: قوة فهو القوي القادر القاهر.

﴿وأشد تنكيلاً﴾ [٨٤] أي: عقوبة وعذاباً، فإنه تعالى قادر على تدمير قوة الكافرين من غير تكليف المؤمنين بقتالهم، ولكنه تعالى جعل الحياة دار اختبار وابتلاء وتكليف ولهذا كلف المؤمنين بقتل الكافرين كما قال عز شأنه: ﴿ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾[3].

الدال على الخير كفاعله

والداعي إلى الجهاد والمحرض عليه كالمجاهد في الأجر، بين سبحانه ذلك من خلال تقريره للقاعدة التالية:

---

(١) صحيح مسلم في الإمارة ١٩٠١.
(٢) المرجع نفسه ١٩٠٢.
(٣) محمد: الآية ٤.

﴿من يشفع شفاعة حسنة﴾ أي: يشفع لغيره ليجلب له حقاً، أو يدفع عنه ضرراً، أو يحرضه على عمل مشروع مبرور، أو يصلح بين متخاصمين، بشرط أن يفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى.

﴿يكن له نصيب منها﴾ أي: من ثواب الشفاعة، أو من ثواب الخير الواقع بها، كما قال النبي ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»[1]، وقال أيضاً: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»[2].

وكما أن الداعي إلى الخير له مثل أجور من تبعه، فالداعي إلى الشر عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، ولهذا قال تعالى:

﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾ كأن يدعو إلى بدعة أو ضلالة، أو يعوق عن طاعة وعبادة، أو تؤدي شفاعته إلى ظلم الناس والعدوان على حقوقهم:

﴿يكن له كفل منها﴾ أي: نصيب من وزرها.

والكفل: هو المثل المساوي، واختيار النصيب في الشفاعة الحسنة؛ لأن جزاء الحسنة يضاعف، والكفل في الشفاعة السيئة؛ لأن من جاء بالسيئة لا يجزى إلا مثلها، ففي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده[3].

﴿وكان الله على كل شيء مقيتاً﴾ [٨٥] أي: مقتدراً أو حفيظاً.

السلام في الإسلام

وتستدعي الشفاعة اللقاء والزيارة، ومن أهم آدابها التحية، وتحية المسلمين فيما بينهم السلام، قال تعالىٰ: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتىٰ تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلّكم تذكرون﴾[4].

فالإسلام دين السلام والمحبة، ودين التواصل والتعاون، وما شرع الله تعالى

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة (١٨٩٣).
(٢) صحيح مسلم، كتاب العلم (٢٦٧٤).
(٣) روح المعاني ٥/٩٨.
(٤) النور: الآية ٢٧.

الجهاد وحرض على القتال، إلا لدفع العدوان ورد الظلم، وقمع الطغيان، ونشر دعوة الإسلام بين الناس، فكان من المناسب في سياق آيات التحريض على القتال، إيراد آية التحية والسلام؛ إبرازاً لحرص الإسلام على نشر السلام والتعاون بين الناس.

﴿وإذا حييتم بتحية﴾ أي: إذا قوبلتم بتحية، أو وجهت لكم تحية، كأن يقال: حياك الله، أو حياكم الله، أي: جعل الله لك حياة، فهي دعاء، وكانت العرب تقول هذه اللفظة، فلما جاء الإسلام بدل ذلك بالسلام، وإنما اختير لفظ السلام على لفظ: حياك الله؛ لأنه أتم وأحسن وأكمل، فمعنىٰ السلام السلامة عن الآفات، فإذا دعا الإنسان بطول الحياة بغير سلامة، كانت حياته مذمومة منغصة[1].

ومن عادة العرب أيضاً أنهم إذا تبادلوا التحية عند اللقاء، كان ذلك دليلاً على المسالمة والمودة وعدم الاعتداء، فكانوا يرون التحية عهداً والتزاماً بالمسالمة والمودة، ينبغي الوفاء به.

﴿فحيوا بأحسن منها﴾ أي: قابلوا التحية بأحسن منها، فالإسلام يشجع كل فضيلة، ويحث على التنافس في الخيرات، والتسابق إلىٰ الفضائل.

﴿أو ردوها﴾ أي: ردوا مثلها، فالزيادة على التحية مندوبة، والمماثلة مفروضة، وفي الحديث الشريف عن عمران بن الحصين قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فرد عليه، فقال النبي ﷺ: «عشر» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد فجلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد فجلس، فقال: «ثلاثون»[2].

فالمماثلة في الرد مشروعة في الإسلام.

قال القرطبي رحمه الله: أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغب فيها، ورده فريضة لقوله تعالى: ﴿فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾[3].

وإنما كان الرد واجباً لأن السلام معناه الأمان، فإذا ابتدأ به المسلم أخاه فلم يجبه، فإنه يتوهم منه الشر، فيجب عليه دفع ذلك التوهم عنه[4].

---

(١) انظر: تفسير الخازن ٢/١٢٧.
(٢) رواه أبو داود والترمذي وحسنه، والنسائي.
(٣) تفسير القرطبي ٥/٢٩٨.
(٤) فتح الباري ١١/٧.

واتفقوا على أن من سلم لم يجزىء في جوابه إلا السلام، ولا يجزىء في جوابه: صبحت بالخير ونحو ذلك[1].

فالتحية في الإسلام السلام ابتداءً ورداً، وقد حث النبي ﷺ على إفشائه بين المسلمين، للآثار الطيبة التي تترتب عليه، فقال: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2].

فالسلام سنة للمعرفة وغير المعرفة.

﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ [٨٦] أي: محاسباً ومجازياً على كل شيء، ومنه التحية وردها.

والحساب والجزاء يوم القيامة، دليل على كمال قدرته تعالى وتمام حكمته وعدله، ولهذا أكده تعالى بقوله:

﴿الله لا إله إلا هو﴾ فهو الواحد الأحد، الذي لا معبود بحق سواه.

﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ أي: لا شك فيه.

﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ [٨٧] أي: لا أحد أكثر صدقاً من الله تعالى، فأخباره تعالى عن يوم القيامة حق وصدق لا خلف فيها أبداً.

توحيد المواقف من المنافقين

وبعد التحذير والنفير والحض على القتال، وكشف مواقف الجبناء المتقاعسين عنه، انتقلت الآيات إلى الحديث عن المنافقين، فهم أكثر الناس تقاعساً عن الجهاد، وتعويقاً عنه، كما أنهم أنشط الناس في نشر الإشاعات الكاذبة، وإذاعة الأراجيف في أثناء القتال، إنهم الطابور الخامس الممالىء للعدو، كما يقولون عنهم في هذا العصر، يعملون جاهدين لتفكيك المجتمع الإسلامي، وإشاعة الخلل والاضطراب فيه، فهم أخطر عليه من العدو الظاهر، الذي يقاتله المسلمون في ميادين القتال، فليس للمنافقين ميدان معين يواجهون فيه، فهم مبثوثون ومنتشرون بين المسلمين في كل

---

(١) فتح الباري ١١/١٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٥٤).

مكان، ويشكلون جزءاً من البنية الداخلية للمجتمع، ويعرفون جميع مداخله وعوراته وثغراته ونقاط ضعفه، فلا عجب أن تهتم الآيات الكريمة بهم، في سياق حديثها عن القتال والجهاد، ومواقف المتقاعسين والمعوقين، فخطرهم كبير، وضررهم عظيم، وعلى المسلمين واجب الحذر منهم، وأن يقفوا منهم موقفاً موحداً لا تردد فيه ولا اختلاف، فأوقات الحروب والأزمات لا تحتمل مواقف الخلاف والنزاع والتردد؛ ولهذا قال سبحانه منكراً على المسلمين اختلافهم في شأن المنافقين:

﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ أي: ما لكم تفرقتم في شأن المنافقين فرقتين، ولم تتفقوا على كفرهم.

﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ أي: والله سبحانه ردهم إلى الكفر بسبب أعمالهم الخبيثة.

فأصل معنىٰ الركس: رد الشيء مقلوباً.

﴿أتريدون أن تهدوا من أضل الله﴾ أي: من أبعده الله عن الهدى بسبب سوء كسبه واختياره.

﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ [٨٨] أي: طريقاً إلى الهداية، فكل طرق الهداية مسدودة عليه؛ بسبب انطماس بصيرته، وإصراره على كفره وفجوره.

وكيف ترجون هدايتهم، وهم يريدون الكفر لكم:

﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً﴾ أي: متساوين معهم في الكفر.

﴿فلا تتخذوا منهم أولياء﴾ أي: لا توالوهم وتجعلوهم لكم أصحاباً وأنصاراً.

﴿حتىٰ يهاجروا في سبيل الله﴾ أي: حتىٰ يؤمنوا ويبرهنوا على صدق إيمانهم بهجرة خالصة في سبيل الله تعالى.

والهجرة إما أن تكون من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو بهجر الكفر والفجور، أو بالخروج للقتال والجهاد في سبيل الله.

ويبدو أن المراد منها هنا المعنىٰ الأخير؛ إذ جاءت الآية في سياق ما سبق معنا من آيات التحذير والنفير، وكان المنافقون يتخلفون عن الخروج إلىٰ القتال، فإذا ما خرجوا إليه وثبتوا فيه، دل ذلك على صحة إيمانهم وصدق إسلامهم.

﴿فإن تولوا﴾ أي: أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله تعالى.

﴿فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾ أي: في أي مكان ظفرتم بهم وتمكنتم منهم.

﴿ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾ [٨٩] أي: وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوها منهم، فهم في الحقيقة لا يقدمون لكم إلا الخذلان والضعف.

ثم استثنت الآيات طوائف منهم بقوله تعالى:

﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي: إلا الذين ينتسبون وينتمون إلى قوم بينكم وبينهم عهد ومسالمة.

وهذا الاستثناء يرجع إلىٰ القتل لا إلى الموالاة؛ لأن موالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال[1].

﴿أو جاؤوكم﴾ أي: أو الذين جاؤوكم ممسكين عن القتال، لا معكم ولا عليكم، وهم طائفة ثانية غير الأولى، ينتسبون إلى قوم محاربين للمسلمين، جاؤوا إلى المسلمين يعلنون بألسنتهم دخولهم في الإسلام.

﴿حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ أي: ضاقت صدورهم عن قتالكم؛ لأن ذلك يظهر نفاقهم، كما ضاقت عن قتال قومهم؛ لأنهم أقاربهم.

﴿ولو يشاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ أي: من لطفه سبحانه بكم أن كفهم عنكم.

﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم﴾ أي: المسالمة والمصالحة.

﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ [٩٠] أي: فما أذن تعالى لكم في قتالهم.

وثمة طائفة ثالثة من المنافقين، لهم حكم يختلف عن الطائفتين السالفتي الذكر، فهؤلاء لا همّ لهم إلا أنفسهم ومصالحهم، فهم يتظاهرون بالإسلام أمام المسلمين، ويتظاهرون بالكفر أمام قومهم:

﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم﴾ أي: يأمنوا منكم بالتظاهر بالإسلام.

﴿ويأمنوا قومهم﴾ أي: بالوفاق وإظهار الكفر.

---

(١) تفسير الخازن ٢/١٣٣.

﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي: كلما دُعوا إلى الكفر رجعوا إليه وانتكسوا فيه، فإذا ما دعتهم مصالحهم وأهواؤهم إلىٰ الكفر والشرك، كفروا وأشركوا، فهم أسرى مصالحهم وأهوائهم.

﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ أي: إن لم يتركوا قتالكم.

﴿ويلقوا إليكم السلم﴾ أي: ولم ينقادوا لكم مسالمين.

﴿ويكفوا أيديهم﴾ أي: ولم يكفوا عن قتالكم سراً أو جهراً.

﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي: حيث ظفرتم بهم وتمكنتم منهم.

﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ [٩١] أي: جعلنا لكم حجة واضحة في قتالهم؛ وذلك لظهور حالهم من الغدر والكفر.

حكم القتل خطأً

ودل تقسيم المنافقين إلى هذه الطوائف الثلاث، والتمييز بينها في الحكم، على حرص الإسلام على نشر السلم والعدل بين الناس، وأنه سبحانه عندما شرع القتال ما جعله غاية في حد ذاته، إنما شرعه وسيلة لنشر العدل والسلام، ولهذا قال تعالى في بيان حكم القتل خطأ:

﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾ أي: ليس من شأن المؤمن ولا يليق به أن يقتل مؤمناً بغير حق، إلا على وجه الخطأ، كأن يرمي حيواناً أو عدواً محارباً فيصيب مسلماً.

فقوله: ﴿ما كان﴾ ليست على النفي، وإنما هو على التحريم والنهي، كقوله: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾[1].

ولما كان إثم الخطأ مرفوعاً في الإسلام لقوله تعالى: ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾[2] بين تعالى أن الأمر في القتل الخطأ ليس كذلك؛ حفظاً للنفوس، فعلى الإنسان واجب التثبت والتحري

---

(١) تفسير القرطبي ٥/٣١١. والآية من سورة الأحزاب ٥٣.
(٢) الأحزاب: الآية ٥.

والتأني، عند أي فعل يمكن أن يؤدي إلى القتل، وعلى القاتل خطأ الكفارة حتىٰ يغفر الله له إثم ترك التثبت، وقد بينها سبحانه بقوله:

﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أي: فعليه تحرير نفس مؤمنة من الرق وذل العبودية.

وفي الآية إشارة إلى أن الحرية حياة، وأن العبودية موت، فمن تسبب في موت نفس حية، فعليه أن يسعىٰ في إحياء نفس كالميتة، وهي النفس المستعبدة، وذلك بتحريرها وتخليصها من العبودية.

وتشريع كفارة القتل الخطأ، وسيلة من الوسائل الكثيرة، التي شرعها الإسلام لتحرير الأرقاء، وتخليصهم من ذل العبودية، وإلى جانب ذلك ضيق الإسلام طرق الاسترقاق وأغلق منافذه الكثيرة التي كانت في الجاهلية، فقصرها على وسيلة واحدة، وهي الأسر في أثناء القتال، بعد أن يأذن ولي أمر المسلمين في استرقاق الأسرى، إذا رأىٰ المصلحة في ذلك.

﴿ودية مسلمة إلى أهله﴾ أي: وعليه أيضاً دية تسلم إلى أهل القتيل، وهي ما يعطىٰ من المال عوضاً عن دم القتيل إلى أهله الذين يرثونه.

﴿إلا أن يصدقوا﴾ أي: إلا أن يعفو أهل القتيل عن القاتل، بترك أخذ الدية منه، وسمي العفو عنها صدقة حثاً عليه، وتنبيهاً على فضله، وعن النبي ﷺ قال: «كل معروف صدقة»[1].

وأما الكفارة التي هي حق الله تعالى فلا تسقط عن القاتل بعفوهم.

﴿فإن كان من قوم عدو لكم﴾ أي: إن كان المقتول خطأ من قوم كفار محاربين لكم.

﴿وهو مؤمن﴾ أي: والمقتول خطأ مؤمن.

﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أي: فعلى قاتله الكفارة فقط، ولا تعطىٰ لأهله الدية؛ لأنهم كفار محاربون، فلا نعطيهم ما يستعينون به على قتالنا.

﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/١٣٦. والحديث رواه مسلم، كتاب الزكاة (١٠٠٥).

أي: إن كان المقتول خطأً من قوم كفار معاهدين أو أهل ذمة، فحكمه حكم المسلم في وجوب الكفارة والدية، فالإسلام يحفظ الحقوق لجميع الناس ولو كانوا غير مسلمين، ويشرع الأحكام التي تحفظ الحياة وتشيع الأمن والسلام بين جميع الناس.

﴿فمن لم يجد﴾ أي: النفس المؤمنة المملوكة؛ بسبب إعسار، أو تعذر الحصول عليها، كما هو الحال في هذا العصر.

﴿فصيام شهرين متتابعين﴾ أي: فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين، بدلاً عن إعتاق الرقبة المؤمنة.

﴿توبة من الله﴾ أي: شرع سبحانه الكفارة والدية، توبة منه سبحانه على القاتل خطأ.

﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ [٩٢] أي: فيما أمر وقدر وشرع.

تحريم العدوان على حق الحياة

ومهدت الآية السابقة في حكم القتل خطأ، للحكم المقصود تقريره، وهو تحريم قتل النفس، وتقبيح جريمة العدوان على حق الحياة، فقال تعالى بعد ذلك مباشرة:

﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ أي: قاصداً قتله، كأن يرميه بآلة تقتل عادة.

﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾ [٩٣] وذلك بسبب ارتكابه جرماً كبيراً عظيماً، وهو القتل والعدوان على الحياة الإنسانية، وقد قرنه تعالى بالشرك الذي هو أعظم الذنوب، فقال: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾[1].

فقتل النفس جريمة كبيرة وورطة عظيمة، وفي الحديث الشريف عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً»[2].

---

(١) الفرقان: الآيتان ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) رواه النسائي والحاكم وصححه. انظر: الترغيب والترهيب ٣/٩٥.

وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»[1].

والجدير بالذكر أن مثل هذا الوعيد الشديد، الذي ذكرته الآية في قتل المؤمن عمداً، قد أوردت السنة مثله في قتل الكافر المعاهد، فعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»[2].

ودلت الآية الكريمة والأحاديث الشريفة على خلود القاتل المتعمد في النار، وأنه لا توبة له، وشاع هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنه.

وأجاب بعض العلماء بأن ذلك جاء على سبيل التغليظ في الزجر؛ لما مر من قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، ولتظاهر النصوص الدالة على أن عصاة المؤمنين لا يخلدون في النار، ويجوز في حق الله تعالى أن يخلف الوعيد، ويمتنع في حقه أن يخلف الوعد، ومن أدعية الصالحين: يامن إذا وعد وفى، وإذا توعد عفا.

وحمل الآخرون الآية على أنها في القاتل المستحل، وكفره مما لا شك فيه، فليس ذلك محلاً للنزاع، واستدلوا بما ورد في سبب نزولها، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جبير، أنها نزلت في مقيس بن ضبابة الكناني، أنه أسلم هو وأخوه هشام، وكانا بالمدينة، فوجد مقيس أخاه هشاماً ذات يوم قتيلاً في الأنصار، في بني النجار، الذين قالوا: ما نعلم له قاتلاً، ولكن نؤدي الدية، فدفعوا إلى مقيس مائة من الإبل دية أخيه، فلما انصرف مقيس ومعه رجل من بني فهر، أرسله النبي ﷺ معه إلى بني النجار، عمد مقيس إلى الفهري فقتله، وارتد عن الإسلام، وركب جملاً من الدية، وساق معه البقية، ولحق بمكة، وهو الذي أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة، وقتل وهو متعلق بأستار الكعبة[3].

ومهما قيل في الآية، فإن فيها دليلاً على حرص الشريعة الإسلامية، على حماية حق الإنسان في الحياة، فالعدوان على حياة إنسان واحد في نظر الإسلام، عدوان

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الديات (٦٨٦٢).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الديات (٦٩١٤).
(٣) انظر: روح المعاني ٥/١١٥.

على حياة جميع الناس، قال تعالى: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيىٰ الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾[1].

الأمر بالتثبت في أثناء الجهاد

ولهذا اتجهت الآيات، تخاطب المؤمنين آمرة لهم بالتثبت، في أثناء خروجهم إلى الجهاد، لكي لا يقتلوا نفساً معصومة، ولا يعتدوا على حياة بريئة، فالجهاد في الإسلام ما شرع للقتل وسفك الدماء، قال تعالىٰ:

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله﴾ أي: إذا خرجتم إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

﴿فتبينوا﴾ أي: فتثبتوا وتحققوا، حتىٰ تميزوا بين العدو المحارب المستحق للقتل، وبين غيره.

وقد نزلت هذه الآية عندما كانت الأسلحة بسيطة فردية، لا تزيد عن سيف ورمح، وأما في العصر الحاضر، بعد أن صنع الإنسان أسلحة الفتك والدمار الجماعي الشامل، فيتأكد الأمر بالتثبت أكثر من قبل، فلا يجوز القصف العشوائي الشامل المدمر، الذي يقتل المقاتلين وغيرهم ممن لا يجوز قتلهم.

﴿ولا تقولوا لمن ألقىٰ إليكم السلام﴾ أي: لمن حياكم بتحية الإسلام.

وفي قراءة (السلم) أي: ألقىٰ إليكم الاستسلام والانقياد.

﴿لست مؤمناً﴾ أي: لست من أهل الإيمان، وإنما قلت ذلك متعوذاً من القتل، فتقتلوه.

﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ أي: تطلبون غنيمة ماله، الذي هو حطام سريع.

وفي الحديث الشريف عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة، فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه، قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتىٰ قتلته،

---

(١) المائدة: الآية ٣٢.

فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ، فقال لي: «يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟» قلت: يا رسول الله إنه إنما كان متعوذاً قال: «قتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟» فما زال يكررها عليّ حتىٰ تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[1]. أي: أن إسلامه كان ذلك اليوم، لأن الإسلام يجب ما قبله، فتمنىٰ أن يكون ذلك الوقت أول دخوله في الإسلام؛ ليأمن من جريرة تلك الفعلة.

وفي رواية عند الطبراني في الكبير، والبزار في مسنده، أن رسول الله ﷺ بعث سرية فيها المقداد، فلما أتوهم وجدوهم تفرقوا، وفيهم رجل له مال كثير، لم يبرح، فقال أشهد ألا إله إلا الله، فأهوى إليه المقداد فقتله، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «يا مقداد، قتلت رجلاً قال لا إله إلا الله؟» فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾.

ولا مانع أن تنزل الآية في الأمرين معاً[2].

﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ أي: عند الله لكم غنائم كثيرة، تغنيكم عن قتل أمثاله.

﴿كذلك كنتم من قبل﴾ أي: أول دخولكم في الإسلام، عندما نطقتم بلفظ الشهادة، فحصنتم بها أنفسكم وأموالكم، قبل التأكد من صدق إيمانكم، ومن مواطأة قلوبكم لألسنتكم.

﴿فمن الله عليكم﴾ أي: بالهداية وصدق الإيمان، والثبات على الإسلام، وكأن الآية تقول لهم: عاملوا من ينطق بكلمة الإسلام كما عوملتم.

﴿فتبينوا﴾ أي: ولا تعجلوا بقتل إنسان معصوم الدم، وكرر هذا الأمر تأكيداً لتعظيمه، وبياناً لخطورته.

﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ [٩٤] فلا تسرعوا إلى القتل وسفك الدماء، وخذوا بأسباب الحيطة والحذر، فإنه تعالى مطلع على أعمالكم وسائلكم عنها.

درجات المجاهدين في الجنة

وحتىٰ لا يحتج المتثاقلون عن الجهاد بما سبق من الأمر بالتثبت، فيحتجوا بها

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الديات (٦٨٧٢).
(٢) انظر: فتح الباري ٨/٢٥٩، ١٢/١٩٠.

علىٰ قعودهم، عادت الآيات تحض على الجهاد والقتال، بأسلوب جديد تبين من خلاله درجات المجاهدين وفضلهم:

﴿لا يستوي القاعدون﴾ أي: عن الجهاد.

﴿من المؤمنين غير أولي الضرر﴾ أي: غير أصحاب الأعذار، كالمرضىٰ والضعفاء، بسبب الشيخوخة والعجز، فإنهم كالمجاهدين، لأن العذر أقعدهم عن الجهاد.

وفي الحديث الشريف عن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: «إن بالمدينة رجالاً، ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض»[1].

وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملىٰ عليه: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ فجاءه ابن أم مكتوم، وهو يملها عليّ، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ـ وكان أعمىٰ ـ فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ، حتىٰ خفت أن ترضَّ فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله: ﴿غير أولي الضرر﴾[2].

﴿والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ أي: لا مساواة بين المجاهدين وبين القاعدين عن الجهاد من غير عذر.

ونفىٰ التساوي بين المجاهد والقاعد بغير عذر، وإن كان معلوماً، توبيخاً للقاعد عن الجهاد، وتحريكاً له عليه، ونحوه: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ فهو تحريك لطلب العلم، وتوبيخ على الرضا بالجهل[3].

﴿فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ أي: في الآخرة، فالمراد درجة من درجات الجنة.

قال ابن عباس: أراد بالقاعدين هنا أولي الضرر، فضل الله المجاهدين على أولي الضرر درجة؛ لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية، وأولو الضرر،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة (١٩١١).
(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٩٢).
(٣) تفسير النسفي ٢/١٤٤.

كانت لهم نية، ولم يباشروا الجهاد، فنزلوا عن المجاهدين درجة[1].

﴿وكلاً وعد الله الحسنىٰ﴾ أي: كلاً من المجاهدين والقاعدين وعد الله المثوبة الحسنىٰ، وهي الجنة، بحسن عقيدتهم وإخلاصهم في نيتهم.

﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين﴾ أي: الذين لا عذر لهم ولا ضرر فيهم.

﴿أجراً عظيماً﴾ [٩٥] أي: ثواباً جزيلاً، بينه سبحانه بقوله بعد ذلك:

﴿درجات منه ومغفرة ورحمة﴾ ففي الجنة درجات خاصة للمجاهدين، ذكرها النبي ﷺ في قوله: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أراه قال: وفوقه عرش الرحمن ـ ومنه تفجر أنهار الجنة»[2].

قال ابن حجر رحمه الله: وليس في هذا السياق ما ينفي أن يكون في الجنة درجات أخرىٰ، أعدت لغير المجاهدين، دون درجة المجاهدين[3].

ويؤكده قوله تعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾[4].

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [٩٦] أي: يغفر لهم ويرحمهم.

الهجرة من بلاد الكفر والظلم

وكما قرر الإسلام للإنسان حقوقه كاملة، أوجب عليه أن يسعىٰ بنفسه لتحصيل هذه الحقوق، بأن يجاهد لتحصيلها ـ كما مر ـ فإن غلب وعجز عن تحصيلها بنفسه،

---

(١) تفسير الخازن ٢/١٤٥.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد (٢٧٩٠).
(٣) فتح الباري ٦/١٢.
(٤) الأحقاف: الآية ١٩.

فعليه أن ينأى عن الإقامة في البلد الذي تهدر فيه حقوقه ولا تصان كرامته، ويفتن فيه عن دينه، فسلامة الدين هي أول المهمات في نظر الإسلام، ولهذا أنزل الله في المتقاعسين والمتثاقلين عن الهجرة، فراراً بدينهم وحقوقهم، قوله الكريم:

﴿إن الذين توفاهم الملائكة﴾ أي: إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم عند حلول آجالهم.

﴿ظالمي أنفسهم﴾ أي: وهم في حال ظلمهم أنفسهم، بسبب إقامتهم في بلد يفتنون فيه عن دينهم وتصادر حقوقهم، ولا تصان كرامتهم.

ويبدو أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة، أسلموا ولم يهاجروا، وأجبروا على الخروج مع جيش المشركين إلىٰ بدر، فقتل بعضهم في صفوف المشركين.

وهو ما تفعله في العصر الحاضر كثير من دول الكفر، إذ تجند رعاياها من المسلمين، وتسوقهم إلى قتال الشعوب المسلمة، والعدوان على بلادهم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: إن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سوادَ المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾[1].

قال ابن حجر: هكذا جاء في سبب نزولها، وفي رواية عن ابن عباس، عند ابن المنذر والطبري: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا، وكانوا يخفون الإسلام، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت، فكتبوا بها إلى من بقي بمكة منهم، وأنهم لا عذر لهم[2].

﴿قالوا فيم كنتم﴾ أي: قالت لهم الملائكة: في أي الفريقين كنتم؟ أفي فريق المسلمين أم في فريق المشركين؟ وهو سؤال توبيخ وتقريع.

﴿قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ أي: كنا مقهورين ذليلين في أرض الكفر، فأكرهنا الكفار على الخروج إلى القتال معهم، وقولهم هذا اعتذار عما وبختهم الملائكة به، لكن الملائكة لم تقبل اعتذارهم، وردوه عليهم مكذبين موبخين:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٥٩٦).
(٢) فتح الباري ٨/٢٦٣.

﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ أي: كنتم قادرين على الهجرة، وأرضه سبحانه واسعة، فلماذا لم تهاجروا فراراً بدينكم كما فعل غيركم؟

﴿فأولئك مأواهم جهنم﴾ أي: مصيرهم إلى أن تكون جهنم مسكنهم وموضع إقامتهم، بسبب ترك الهجرة الواجبة عليهم، حتىٰ فتنوا عن دينهم، فساعدوا الكفار وقاتلوا تحت رايتهم.

﴿وساءت مصيراً﴾ [٩٧] أي: وبئس المصير مصيرهم إلى جهنم.

ثم استثنىٰ سبحانه أصحاب الأعذار من الضعفاء الذين لا يستطيعون الهجرة والتحول عن بلد الكفر والظلم، مما يدل على يسر الشريعة الإسلامية وسماحة أحكامها، فقال:

﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والوِلدان لا يستطيعون حيلة﴾ أي: لا يستطيعون الحيلة، وهي تحصيل أسباب الهجرة وما تحتاج إليه.

﴿ولا يهتدون سبيلاً﴾ [٩٨] أي: ولا يعرفون إذا خرجوا المسالك والطرق.

وأفاد ذكر ﴿الوِلدان﴾ وهم الصغار، إلىٰ أن عليهم الهجرة أيضاً، والواجب على أوليائهم أن يهاجروا بهم، فخطر الافتتان عن الإسلام في جانبهم أشد وأعظم، إذ ينشأون في بلاد الكفر، في ظل أنظمته الكافرة، وتوجيهاته الفاجرة، في مدارسه ومعاهده وتقاليده البعيدة عن أخلاق المسلمين وعاداتهم.

قال ابن العربي رحمه الله: قسم العلماء الذهاب في الأرض قسمين، هرباً وطلباً، فالأول ينقسم إلى:

١ ـ الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي ﷺ، فإن بقي في دار الحرب عصى.

٢ ـ الخروج من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكاً يقول: لا يحل لأحد أن يقيم في أرض يسب فيها السلف.

٣ ـ الخروج من أرض غلب عليها الحرام، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم.

٤ ـ الفرار من الأذية في البدن، فإذا خشي على نفسه فقد أذن الله في الخروج عنه والفرار بنفسه، ليخلصها من ذلك المحذور.

٥ ـ الفرار خوف الأذية في المال، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله[١].

﴿فأولئك﴾ أي: المستضعفون الذين لا يستطيعون الهجرة.

﴿عسى الله أن يعفو عنهم﴾ أي: يتجاوز عنهم بفضله تعالى.

و﴿عسى﴾ من الله تعالى واجب؛ لأنه إطماع وترجٍ، والله سبحانه إذا أطمع عبداً وصله[٢].

وفي تعليق العفو بكلمة الإطماع والترجي، إشارة إلى أن ترك الهجرة الواجبة أمر خطير، حتىٰ إن أصحاب الأعذار غير مستيقنين بالعفو والنجاة من المسؤولية.

﴿وكان الله عفواً غفوراً﴾ [٩٩] أي: يعفو عن عباده بفضله ويغفر لهم.

ثم قال تعالى يحث على الهجرة في سبيله ويشجع عليها:

﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً﴾ أي: يجد مكاناً يؤويه، أو يجد طريقاً يراغم بسلوكه الظالمين، أي يفارقهم على رغم أنوفهم، والرغم: الذل والهوان، وأصله لصوق الأنف بالرغام، وهو التراب[٣].

﴿وسعة﴾ أي: ويجد أيضاً سعة وخلاصاً من الهم والضيق الذي كان فيه، إما سعة في الرزق أو في حرية العبادة وإظهار الدين، أو الأمن بعد الخوف، كما في قوله تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾[٤].

﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت﴾ أي: يموت في الطريق قبل وصوله إلى مقصده.

﴿فقد وقع أجره على الله﴾ أي: ثبت أجره عند الله تعالى، ثبوت الأمر الواجب بحكم الوعد السابق، الذي لا خلف فيه.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٥/٣٥٠.
(٢) تفسير الخازن ٢/١٤٨.
(٣) تفسير النسفي ٢/١٤٩.
(٤) العنكبوت: الآية ٥٦.

ويدخل في حكم الآية، من قصد فعل طاعة من الطاعات، ثم عجز عن إتمامها، كتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملاً[1]، لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

وقال أيضاً: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»[3].

وذكروا في سبب نزول الآية، ما رواه ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج ضمرة بن جندب إلىٰ رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلىٰ رسول الله ﷺ، فنزلت الآية[4].

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [١٠٠] أي: يغفر للفارين بدينهم ويرحمهم، وييسر لهم سبل الأمن والسلام.

قصر الصلاة في السفر

وبمناسبة ذكر الهجرة والسفر في سبيل الله تعالى، ذكر سبحانه رخصة قصر الصلاة في السفر، وكأنه تعالى أراد ببيان هذه الرخصة، في هذا الموضع، التشجيع أيضاً على الضرب في الأرض والسفر في سبيله.

﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ أي: سافرتم في نواحي الأرض، في برها وبحرها وجوها.

﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ أي: لا حرج عليكم أن تخففوا من الصلاة، فتصلوا الصلاة الرباعية المفروضة ثنائية، فالمسافر يصلي الظهر والعصر والعشاء، ركعتين ركعتين، حتىٰ يقيم، فحينئذ يعود إلى صلاتها أربعاً أربعاً.

﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ أي: إن خفتم أن يتعرضوا لكم بقتال أو غيره من العدوان.

---

(١) تفسير الخازن ٢/١٤٩.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة (١٩٠٧).
(٣) المرجع نفسه (١٩٠٩).
(٤) مختصر ابن كثير ١/٤٢٨.

وقد نزلت هذه الآية قبل أن يمتد سلطان الإسلام وأمنه، إلى البوادي والمناطق البعيدة عن المدينة، وبقي حكمها مشروعاً بعد أن زال الخوف، وأعزَّ الله الإسلام، وانتشر الأمن والسلام في أطراف الأرض.

وفي الحديث الشريف عن أنس قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلىٰ مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتىٰ رجعنا إلى المدينة[1].

وعن حارث بن وهب قال: صلىٰ بنا النبي ﷺ، آمن ما كان، بمنىٰ ركعتين[2].

وعن يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: (ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) فقد أمن الناس! فقال: عجبتُ منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته»[3].

﴿إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾ [١٠١] أي: فاحذروهم ولا تثقوا بهم.

صلاة الخوف

أما صلاة الخوف في حال المواجهة وتوقع الخطر، فلها أحكام خاصة، شرعها سبحانه بقوله:

﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ أي: إذا كنت يا محمد - ﷺ - في أصحابك، وأردت أن تقيم الصلاة بهم جماعة.

وقد تعلق بظاهر الخطاب بعض الفقهاء، فرأوا أنها شرعت على وجه الخصوص معه عليه الصلاة والسلام فقط، ولكن جمهور العلماء يقولون بمشروعيتها أبداً، والخطاب للنبي ﷺ، ليقتدي به غيره، وقد فعلها الصحابة بعده عليه الصلاة والسلام.

ودلت مشروعيتها على أهمية صلاة الجماعة، كما دلت على حرص الشريعة الإسلامية على سلامة المسلمين، فشرعت لهم صلاة الخوف في حال الخطر ومواجهة العدو، لكي لا يستفيد العدو من انشغال المسلمين بالصلاة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب تقصير الصلاة (١٠٨١).
(٢) المرجع نفسه (١٠٨٣).
(٣) صحيح مسلم، صلاة المسافرين (٦٨٦).

﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ أي: فلتقف فرقة منهم معك، فتصلي بهم.

وفي الآية إيجاز، فقد دلت على أن الإمام يقسم الجنود فرقتين، فرقة تصلي أولاً مع الإمام، بينما تكون الأخرى في مواجهة العدو.

﴿وليأخذوا أسلحتهم﴾ أي: وليحملوا أسلحتهم وهم في الصلاة، حيطة وحزماً، والمراد الأسلحة الخفيفة التي يمكن حملها.

﴿فإذا سجدوا﴾ أي: أتموا الركعة وسجدوا لها، أو أتموا صلاتهم وفرغوا منها، فقد ذكرت الأحاديث الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام، صلىٰ صلاة الخوف بأصحابه أكثر من مرة، وبهيئات مختلفة.

فعن ابن عمر قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف في بعض أيامه، فقام طائفة معه، وطائفة بإزاء العدو، فصلىٰ بالذين معه ركعة، ثم ذهبوا، وجاء الآخرون فصلىٰ بهم ركعة، ثم قضت الطائفتان ركعة ركعة. وقال ابن عمر: فإذا كان خوف أكثر من ذلك، فصل راكباً أو قائماً، تومىء إيماءً[1].

وعن سهل ابن أبي حثمة أن رسول الله ﷺ صلى بأصحابه في الخوف، فصفهم خلفه صفين، فصلى بالذين يلونه ركعة، ثم قام، فلم يزل قائماً حتىٰ صلى الذين خلفهم ركعة، ثم تقدموا وتأخر الذين كانوا قدامهم، فصلىٰ بهم ركعة، ثم قعد حتىٰ صلىٰ الذين تخلفوا ركعة، ثم سلم[2].

وثمة هيئة أخرى لصلاة الخوف، رويت عن النبي ﷺ، ويرجع اختلاف هيئات الصلاة، لاختلاف ظروف المواجهة مع العدو، ومدى تحقق الخطر.

ثم أكملت الآية وصفها لصلاة الخوف، بقوله تعالى:

﴿فليكونوا من ورائكم﴾ أي: فليرجع الذين صلوا معك أول الصلاة، ليقفوا في مواجهة العدو.

﴿ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك﴾ أي: الركعة الثانية التي بقيت عليك، ثم يتمون بقية صلاتهم.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين (٨٣٩).
(٢) المرجع نفسه ٨٤١.

﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾ كرر تعالى الأمر بحمل السلاح، وأضاف إليه الأمر بالحذر من العدو؛ لأنه قد لا ينتبه إلى انشغال المسلمين بالصلاة في أول الأمر، ويحاول عندما يشعر بانشغالهم بالصلاة انتهاز الفرصة، ويفوت عليه ذلك التيقظ والحذر مع أخذ الأسلحة.

﴿ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم﴾ أي: يتمنىٰ الكفار أن ينالوا منكم غرة وغفلة عن أسلحتكم وعددكم.

﴿فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾ أي: فيهجمون عليكم هجمة واحدة مباغتة، فللمفاجأة في الحرب أثر كبير في إضعاف العدو وتحطيم قوته.

﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضىٰ أن تضعوا أسلحتكم﴾ أي: ولا إثم ولا حرج عليكم في حال المطر أو المرض أن تضعوا أسلحتكم بجانبكم، لصعوبة حمل السلاح في مثل هذه الأحوال، بشرط أن تكونوا في أقصىٰ درجات الانتباه والحذر.

﴿وخذوا حذركم﴾ أي: من مباغتة العدو ومفاجئاته.

﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾ [١٠٢] أي: أعد لهم عذاباً فيه إذلال وإهانة، وهذا وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد أمرهم بالحزم والحذر، وفيه رفع لهمم المسلمين وتقوية لعزائمهم، فالأمر بالحذر وأخذ أسباب الحيطة لا يعني ضعف المسلمين وقوة عدوهم، إنما هي أحكام كلفنا الله تعالى بها، مع توكلنا عليه، واعتقادنا أن النصر بيده جل وعلا.

وقد دلت هذه الأحكام على أن الشريعة الإسلامية حريصة على سلامة قوة المسلمين وعزتهم، وأن ذلك في نظرها أهم الواجبات، فهو مقدم حتىٰ على الصلاة، التي هي أهم أركان الإسلام بعد النطق بالشهادتين، فإذا كانت أحوال المواجهة شديدة، ولم يتمكنوا معها من الصلاة بجماعة، أو كانت الصلاة بجماعة تعرضهم لخطر التدمير والقتل، كما هو الحال في هذا العصر، بعد أن صنع الناس أسلحة الدمار الجماعي الشامل، يصلون فرادى، قائمين أو جالسين، إذا كان القيام يعرضهم للخطر، وعند تعذر أداء الصلاة في وقتها بسبب شدة القتال، يأخرونها كما فعل النبي ﷺ عندما اشتد على المسلمين الحصار في معركة الخندق، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: جاء عمر يوم الخندق، فجعل يسب كفار قريش ويقول:

يا رسول الله ما صليت العصر حتىٰ كادت الشمس أن تغيب، فقال النبي ﷺ: «وأنا والله ما صليتها بعد» قال: فنزل إلى بطحان فتوضأ وصلى العصر بعدما غابت الشمس، ثم صلى المغرب بعدها[1].

ويجوز أيضاً تأخير الصلاة لتفويت فرصة الفرار على العدو، وتعجيل النصر للمسلمين، كما فعل الصحابة في معركة السوس، التي تم بها فتح حصن تستر، في بلاد فارس، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: حضرت عند مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسى ـ الأشعري ـ ففتح لنا. وقال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها[2].

﴿فإذا قضيتم الصلاة﴾ أي: إذا أديتم الصلاة وفرغتم منها.

﴿فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ أي: أكثروا من ذكر الله في جميع الأحوال، فذكره تعالى مطلوب من المسلم في جميع تقلباته، وخاصة في ميادين القتال عند مواجهة العدو، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[3].

﴿فإذا اطمأننتم﴾ أي: فإذا أمنتم وزالت أسباب الخوف.

﴿فأقيموا الصلاة﴾ أي: أدوها تامة بجميع شروطها وفروضها.

﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ [١٠٣] أي: فرضاً مفروضاً في أوقات محدودة، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطىٰ وقوموا لله قانتين. فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾[4].

وتابعت الآيات شد عزائم المسلمين ورفع هممهم، لكي يستمروا على طريق الجهاد:

﴿ولا تهنوا﴾ أي: لا تضعفوا ولا تتوانوا.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الخوف (٩٤٥).
(٢) المرجع نفسه.
(٣) الأنفال: الآية ٤٥.
(٤) البقرة: الآيتان ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

﴿في ابتغاء القوم﴾ أي: في ملاحقة الكفار وقتالهم، حتىٰ لا تبقىٰ لهم قوة تهددكم.

﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾ أي: فإن آلام القتال مشتركة بينكم وبينهم، فكما تكابدون من آلام القتال والجراح فإنهم يكابدون، كما قال تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾[1].

﴿وترجون من الله ما لا يرجون﴾ أي: وتمتازون عليهم بإيمانكم بالله تعالى، ورغبتكم بثوابه ونصره، فينبغي أن تكونوا أصبر منهم على مشقات القتال وآلامه.

﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ [١٠٤] أي: عليماً بأحوالكم، حكيماً فيما شرع لكم وكلفكم.

---

(١) آل عمران: الآية ١٤٠.

الفصل الخامس

حادثة بني الأبيرق

الحادثة وحقوق الإنسان

اهتمت الآيات في سورة النساء بهذه الحادثة اهتماماً كبيراً؛ لصلتها بالعدوان على حق من أهم حقوق الإنسان، وهو براءة ذمته عن أي مسؤولية حتىٰ تثبت بالأدلة القطعية، واتهام الإنسان البريء والعدوان عليه وسيلة شائعة، كثيراً ما تلجأ إليها أنظمة الحكم الاستبدادية، لتتخلص من مناوئيها ومعارضيها.

ولما كان الإسلام دين العدل والمساواة ـ كما مر في آيات السورة ـ وتحرص الشريعة الإسلامية على حماية الحقوق لجميع الناس، مسلمين أو غير مسلمين، ودفع الظلم عنهم، أنزل الله تعالى الآيات التالية، على النبي ﷺ، ليحمي حق إنسان واحد، ويدفع عنه الظلم، ويُبَرِّئَهُ مما اتهم به كذباً وبهتاناً، وقد ذكرت بعض الروايات أنه يهودي، من يهود المدينة المنورة.

وملخص الحادثة أن أهل بيت من بني ظفر من بيوت الأنصار، يقال لهم بنو أبيرق، ثلاثة أخوة، بشر وبشير ومبشر، نقبوا مشربة لرفاعة بن زيد في الليل، وسرقوا منها أدراعاً له وطعاماً، وقيل: إن السارق بشير وحده، وكان منافقاً، وقيل: إن اسمه طعمة بن أبيرق، فشكاهم ابن أخي رفاعة، قتادة بن النعمان، إلى رسول الله ﷺ، فجاء ابن عم لهم يدعى أسير بن عروة مع رجال من بني ظفر، يدافعون عن بني أبيرق، فقال أسير: يا رسول الله، إن هؤلاء عمدوا إلى أهل بيت، هم أهل صلاح ودين، فأنبوهم بالسرقة، ورموهم بها من غير بينة.

وجعل يجادل عنهم، ويتهم بالسرقة لبيد بن سهل، وقيل: زيد بن السمين، يهوديين، وقيل رجل من الأنصار، حتىٰ قال النبي ﷺ لقتادة: «عمدت إلى أهل بيت ذكر فيهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة، على غير ثبت ولا بينة» فرجع قتادة إلى

عمه، فأخبره بما قال رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فأنزل الله الآيات التالية[1]:

اجتهاد النبي ﷺ

﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ أي: بما عرفك الله وأوحى به إليك، إما بوحي ونص، أو بنظر واجتهاد على قواعد الوحي وأصوله.

ففي الآية دليل على أن للنبي ﷺ أن يجتهد فيما لم ينزل عليه فيه شيء، وربما أداه اجتهاده إلى أمر فيحكم به، ويكون في الباطن بخلاف ذلك، لكن مثل ذلك لو وقع لم يُقر عليه ﷺ لثبوت عصمته، ويؤكد ذلك حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها»[2].

قال ابن حجر: والحكمة في ذلك، مع أنه كان يمكن إطلاعه بالوحي على كل حكومة، أنه لما كان مشرعاً كان يحكم بما شرع للمكلفين، ويعتمده الحكام بعده... ولا يسمىٰ ذلك خطأ في الاجتهاد، قال الشافعي: الحكم بين الناس يقع على ما يسمع من الخصمين، بما لفظوا به، وإن كان يمكن أن يكون في قلوبهم غير ذلك، وأنه لا يقضىٰ على أحد بغير ما لفظ به، فمن فعل ذلك فقد خالف كتاب الله وسنة نبيه ﷺ[3].

وسكوته ﷺ عن بعض المسائل التي عرضت له، حتىٰ نزل عليه الوحي بحكمها، كانت من المسائل التي ليس لها أصول في الشريعة.

﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ [١٠٥] أي: لا تكن لأجل الخائنين مخاصماً للبرآء.

وفي هذا دليل على أن النيابة عن المبطل والمتهم في الخصومة لا تجوز، فلا

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ٥/٣٧٦؛ مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٣٤.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الأحكام (٧١٨١).
(٣) انظر: فتح الباري ١٣/١٧٤.

يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد، إلا بعد أن يعلم أنه محق، ومشى الكلام في السورة على حفظ أموال اليتامى والناس، فبين أن مال الكافر محفوظ عليه كمال المسلم، إلا في الموضع الذي أباحه الله تعالى[1].

﴿واستغفر الله﴾ أي: استغفر الله للمذنبين من أمتك والمتخاصمين بالباطل، وقد مر معنا من قريب قوله تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾.

وذهب الطبري إلى أن المعنى: استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين، ورده ابن عطية فقال: وهذا ليس بذنب؛ لأن النبي ﷺ إنما دافع عن الظاهر، وهو يعتقد براءتهم[2].

فالحاكم يحكم ـ كما مر معنا ـ بما يسمع، ولا يعد النبي ﷺ مذنباً إذا حكم بحسب ما سمع، وأخطأ، ولكن لا يقر عليه الصلاة والسلام على الخطأ، لثبوت عصمة النبوة له.

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ [١٠٦] أي: يغفر للتائبين ويرحمهم.

تحريم الدفاع عن المجرمين

﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم﴾ أي: لا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعصية، جعلت الآية معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم؛ لأن وبال المعصية راجع إليهم. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به غيره، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾.

﴿إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً﴾ [١٠٧] أي: مبالغاً في الخيانة والإثم، مفرطاً فيهما ومصراً عليهما، وبذلك أخرجت الآية من وقع في الخيانة والمعصية مرة، وبادر إلى التوبة والاستغفار، كما في قوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾[3].

---

(١) تفسير القرطبي ٥/٣٧٧.
(٢) المحرر الوجيز ٤/٢١٩.
(٣) آل عمران: الآية ١٣٥.

﴿يستخفون من الناس﴾ أي: يستترون من الناس حياءً وخوفاً من ضررهم.

﴿ولا يستخفون من الله﴾ أي: لا يستحيون منه سبحانه، وهو أحق أن يُستحيىٰ منه ويخشىٰ عقابه، وإنما فسر الاستخفاء منه تعالى بالاستحياء؛ لأن الاستتار منه عز شأنه محال، فلا فائدة في نفيه، ولا معنىٰ للذم في عدمه[1].

﴿وهو معهم﴾ أي: على الوجه اللائق به سبحانه، أو هو معهم بعلمه وسمعه وقدرته جل جلاله، لا يخفىٰ عليه خاف من سرهم، كما قال سبحانه: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنىٰ من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾[2].

﴿إذ يبيتون ما لا يرضىٰ من القول﴾ أي: إذ يدبرون ويزورون سراً قولاً لا يرضى سبحانه عنه، لأن فيه دفاعاً عن المجرم واتهاماً للبريء، وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي ﷺ، فإنه يسمع قول طعمة، ويقبل يمينه لأنه مسلم، ولا يسمع قول اليهودي لأنه كافر[3].

﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ [١٠٨] أي: عالماً بكل أعمالهم علم إحاطة، لا يخفىٰ عليه شيء منها.

﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا﴾ أي: يا هؤلاء المجادلون عن المجرمين في الحياة الدنيا، وهو خطاب مشافهة للتوبيخ والتقريع.

﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ أي: لا أحد يجادل الله عنهم يوم القيامة؛ إذ كل إنسان مشغول بنفسه، كما قال تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾[4].

﴿أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ [١٠٩] أي: ولا أحد يكون عليهم حافظاً ومحامياً من بأس الله تعالى وعقابه.

---

(١) روح المعاني ٥/١٤١.
(٢) المجادلة: الآية ٧.
(٣) تفسير الخازن ٢/١٦٢.
(٤) عبس: الآيتان ٣٤ ـ ٣٧.

اتهام البريء بهتان

هكذا كشفت الآيات الحقيقة، وأظهرت براءة البريء، وأشارت إلى المجرم الحقيقي، ووبخت المدافعين عنه، ثم دعتهم إلى التوبة والاستغفار، وشجعتهم عليها، بأسلوب الخبر وتقرير الحكم العام، الذي ينسحب عليهم وعلى غيرهم.

وهو أسلوب تربوي حكيم من أساليب القرآن الكريم المهذبة، والتي تأتي في مواضعها المناسبة المؤثرة، حيث تكون النفوس مستعدة للاستجابة والتوبة، بعد أن ووجهت بخطئها، وعرفت شناعة وفداحة جرمها.

﴿ومن يعمل سوءاً﴾ أي: يسيء به غيره، كأن يتهم بريئاً.

﴿أو يظلم نفسه﴾ أي: بفعل معصية يعود ضررها على نفسه فقط.

﴿ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ [١١٠] أي: يغفر سبحانه له ذنوبه، إن تاب عنها ويرحمه.

﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾ لأن وباله يعود على نفسه، فالمسؤولية شخصية، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ [١١١] فلا يعاقب بذنب غير فاعله.

وبعد أن قررت الآيات مسؤولية الإنسان الشخصية عن ذنوبه، توعدت الذين يتهمون غيرهم بجرائمهم ومعاصيهم، ويحاولون التملص من المسؤولية عنها، بأشد أنواع الوعيد والتهديد:

﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً﴾ أي: ومن يفعل ذنباً صغيراً كان أو كبيراً.

﴿ثم يرم به بريئاً﴾ أي: ثم يتهم به إنساناً بريئاً.

وفي هذا إشارة إلى أن الأصل في الإنسان براءته، وأن محاولة إسقاط هذه البراءة عدوان على حق من أعظم حقوقه.

﴿فقد احتمل بهتاناً﴾ أي: كذباً عظيماً، سمي بهتاناً من البهت، وهو الكذب الذي يتحير في عظمه وشناعته وقبحه.

﴿وإثماً مبيناً﴾ [١١٢] أي: واحتمل أيضاً مع البهتان ذنباً ظاهراً؛ إذ ارتكب في الحقيقة ذنبين، واتصف بصفتين قبيحتين، فهو بفعل الذنب آثم، وبرمي البريء

باهت، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقوله فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[1].

عصمة النبوة

ودل ما حدث على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته ونبوته، كما دل على فضل الله تعالى عليه، وعنايته به، وعصمته له، فالنبي لا يقر على خطأ؛ لأنه محفوظ بحفظ الله تعالى، ومعصوم بعصمته، ولهذا توجهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ، تبين له فضله تعالى عليه، بقوله الكريم:

﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾ أي: لولا فضله سبحانه ورحمته عليك، لتمكن فريق من الناس، وهم قوم طعمة بن الأبيرق، أن يبعدوك عن القضاء بالحق والعدل، مع علمهم بحقيقة الحال.

﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾ أي: والحقيقة أنهم ما تمكنوا من ذلك، وعاد وباله عليهم.

﴿وما يضرونك من شيء﴾ أي: فإنهم وإن سعوا في إضلالك، فإنك ما وقعت فيه، وما أصابك منه ضرر؛ لأنك اتبعت أصول القضاء الصحيحة، وبنيت حكمك على ظاهر الحال.

﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ أي: أنزل عليك القرآن الكريم والسنة المطهرة.

﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ أي: علمك من أحكام الشرع وأمور الدين، ومن علوم الغيب وخفيات الأمور، التي لا يعلمها إلا هو سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[2].

﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ [١١٣] أي: كان فضله تعالى عظيماً فيما

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر (٢٥٨٩).
(٢) الشورى: الآية ٥٢.

علمك وأنعم عليك من النعم الجليلة والخصائص العظيمة، ولهذا كان ﷺ يقوم من الليل حتىٰ ترم قدماه، فيقال له، فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1].

ومن فوائد ما حدث أيضاً، بيان كمال علمه تعالى، وأنه مطلع على مكنونات الضمائر والسرائر، فما يدبره المؤتمرون فيما بينهم سراً، للاحتيال على الناس والإضرار بهم، والعدوان على حقوقهم، لا يخفىٰ على الله تعالى، الذي يعلم سرهم ونجواهم، ولهذا قال تعالىٰ:

﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ أي: لا خير في كثير مما يدبرونه سراً ويتناجون به.

والنجوىٰ: المسارة، والناس عادة إذا أرادوا المكر والشر يخفونه ويتحدثون به سراً، كما فعل قوم بني الأبيرق.

﴿إلا من أمر بصدقة﴾ أي: إلا نجوى من أراد أن يخفي صدقته، فإن إخفاء الصدقة أفضل من إظهارها، قال تعالى: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتُؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾[2].

﴿أو معروف﴾ أي: أمر بعمل من أعمال البر المعروفة المشروعة.

فالتناجي في عمل الخير جائز، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾[3].

﴿أو إصلاح بين الناس﴾ أي: سعىٰ في إصلاح ذات البين، وإزالة أسباب الخصام بين المتخاصمين، فله أن يتحدث سراً مع كل جانب، ولو كان في حديثه كاذباً، إذا قصد الإصلاح، وفي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، ويقول خيراً وينمي خيراً»[4].

وإصلاح ذات البين من أعظم القربات والعبادات، فهو يؤدي إلىٰ إشاعة الألفة والمحبة بين أبناء المجتمع، ويخلصهم من الاختلاف والنزاع، قال عليه الصلاة

(١) صحيح البخاري، كتاب التهجد (١١٣٠).
(٢) البقرة: الآية ٢٧١.
(٣) المجادلة: الآية ٩.
(٤) صحيح مسلم، كتاب البر (٢٦٠٥).

والسلام: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، وإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين»[1].

﴿ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله﴾ أي: خالصاً لوجه الله تعالى.

﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ [١١٤] لا يعلم قدره إلا الله عز وجل.

حجية الإجماع

ومن فوائد ما حدث أيضاً بيان خطر مخالفة الرسول ﷺ ومعاداته، ومحاولة تلبيس الأمر عليه، حتىٰ يخطىء في قضائه وحكمه، كما فعل بنو الأبيرق، قال تعالى:

﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدىٰ﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ، من بعد وضوح الأدلة الدالة على صدقه وصحة رسالته ونبوته، فمخالفته حينئذ مخالفة عناد وجحود.

﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أي: ويسير في غير طريق المؤمنين، الذين يطيعون الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ويعظمونه ويتمسكون بسنته.

﴿نوله ما تولى﴾ أي: ندعه ونخلي بينه وبين طريق الضلال الذي اختاره، فيزداد ضلالاً وإثماً، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[3].

﴿ونصله جهنم﴾ أي: ندخله فيها ونشويه بنارها.

﴿وساءت مصيراً﴾ [١١٥] ودلت الآية على أن الله تعالى حفظ المؤمنين من الاجتماع على الخطأ والضلال، فلا تجتمع آراؤهم على ضلالة، وجاء في الأثر عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن[4].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.

(٢) الأنعام: الآية ١١٠.

(٣) الصف: الآية ٥.

(٤) رواه أحمد والبزار والطيالسي والطبراني وأبو نعيم، وهو موقوف حسن.

وهذه الآية دليل في رأي كثير من العلماء على حجية الإجماع، وهو اتفاق آراء العلماء على حكم قضية حادثة لا نص فيها.

قال ابن كثير: وقوله: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عوَّل عليه الشافعي في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته، هذه الآية الكريمة، بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها[1].

وقد عودنا الله في كتابه الكريم، أنه كلما توعد ببعض آيات الوعيد، أتبعها ببعض آيات الترغيب، وها هي الآيات تفتح لبني الأبيرق وأمثالهم باب التوبة وترغبهم فيها، فلا يأس من رحمة الله تعالى، ومهما كانت ذنوب الإنسان كبيرة فإن الله تعالى يغفرها، إلا ذنب الشرك به سبحانه، ولهذا كرر تعالى قوله الكريم للمرة الثانية في السورة:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وكأنه تعالى ذكر قوله الكريم هذا في سياق قوله: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ لكي يبين خطر مخالفة الرسول ﷺ، وخطر مخالفة إجماع المسلمين، إذ يؤدي ذلك إلى الذنب الكبير العظيم الذي لا يغفر، وهو الإشراك به جل وعلا.

﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ [١١٦] أي: ابتعد كثيراً عن طريق الحق، الذي هو طريق الرسول ﷺ، وسنته من بعده، وما تجمع عليه أمته من بعده أيضاً.

ويلاحظ أنه تعالى ختم الآية في المرة الأولى بقوله: ﴿ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾ لأنها جاءت هناك في سياق الخطاب الموجه لأهل الكتاب، فنبهوا بهذا إلىٰ أن الشرك افتراء كبير على الله تعالى الواحد الأحد، وأما هنا فالكلام موجه إلى المسلمين، فنبهوا على أن الشرك من الضلال البعيد؛ تحذيراً لهم من مخالفة

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٣٧.

الرسول ﷺ، فالمغايرة في ختام الآية جاء حسبما يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه[1].

حقيقة الشرك ومصدره

ثم بينت الآيات حقيقة الشرك ومصدره الأصلي، وبعض مظاهره العملية؛ تأكيداً لما قرره تعالى في قوله السابق: ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾، وتحذيراً للمؤمنين من مقارفته ومقاربته.

﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾ أي: هؤلاء المشركون ما يعبدون من دون الله تعالىٰ إلا إناثاً، وهو تصوير للشرك في أقبح صُوَره، فقد كان العرب يستضعفون الأنثىٰ ويظلمونها، ويحرمونها من أكثر حقوقها ـ كما مر في صدر السورة ـ وكانوا أيضاً يعبدون أصناماً يسمونها بأسماء الأنثىٰ، كاللات والعزىٰ ومناة وإساف ونائلة، فأي ضلال أبعد من هذا الضلال، يشركون بالله تعالى غيره، ويزعمون أن شركاءه تعالى إناث.

ثم كشفت الآيات عن مصدر هذا الضلال البعيد ومنبعه، بقوله تعالى:

﴿وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً﴾ [١١٧] أي: وعبادتهم لهذه الأصنام هي في الحقيقة طاعة للشيطان المتمرد على الله تعالى، العريق في العصيان، فهو مصدر كل كفر وشرك؛ إذ هو الذي دعاهم إليه وزينه لهم، وهم في حقيقة الأمر عباد للشيطان، وكثيراً ما حذر تعالى الإنسان من طاعة الشيطان وعبادته، كقوله تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾[2].

﴿لعنه الله﴾ أي: أبعده تعالى من رحمته، بسبب تكبره وجراءته على مخالفة أمره، كما في قوله سبحانه: ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإنَّ عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾[3].

فالشيطان هو العدو الأول للإنسان، يعمل دائماً لإضلال الناس وإبعادهم عن طاعة ربهم سبحانه، ومن وقاحته أنه أعلن ذلك:

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٢/٢٣٣.

(٢) يس: الآيتان ٦٠ ـ ٦١.

(٣) الحجر: الآيتان ٣٤ ـ ٣٥.

﴿وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ [١١٨] أي: قال للحق سبحانه بعد أن تكبر عن أمره، ورفض سجود التكريم والتحية لآدم: لأتخذن من عبادك جزءاً كبيراً معلوماً، قدر لي أن أغويهم وأضلهم.

ودل قول الخبيث هذا على ثقته الكبيرة في قدرته على إضلال الناس وإغوائهم، ولعل ذلك يرجع إلى دراسته لطبيعة تكوين الإنسان، واطلاعه على نقاط الضعف فيه، ففي الحديث الشريف عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك»[١] أي: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات.

وقد تمكن الخبيث فعلاً عن طريق الشهوات من إضلال أكثر الناس، كما أخبر عنه تعالى في قوله: ﴿قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾[٢]، وقال أيضاً: ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾[٣].

والعجيب أن أحد الكتاب المعاصرين، الذين كتبوا في التفسير، غفل عن هذه الآيات وأمثالها في التنزيل الحكيم، وعن الواقع الأليم الذي انحدر إليه أكثر الناس في الماضي والحاضر، فزعم أن الصلاح غلب على جماعة البشر في كل عصر، وبقي معها من الشرور حظ يسير، ينزع فيه الشيطان منازعه، وكل الله أمر الذياد عنها إلى إرادة البشر، بعد تزويدهم بالنصح والإرشاد بواسطة الشرائع والحكمة[٤].

وكأن صاحب هذا الكلام لم يقرأ قوله تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾[٥].

وقوله أيضاً: ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾[٦].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر (٢٦١١).
(٢) الأعراف: الآيتان ١٦ ـ ١٧.
(٣) الحجر: الآيتان ٣٩ ـ ٤٠.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ٥/٢٠٤.
(٥) يوسف: الآية ١٠٣.
(٦) المائدة: الآية ٤٩.

كما غفل عن دركات الشرور والفتن والظلم والطغيان، في المجتمعات البشرية ماضياً وحاضراً.

صرعى الأماني الباطلة

﴿ولأضلنهم﴾ أي: بدعوتهم إلى الضلال وتزيينه لهم.

﴿ولأمنينهم﴾ أي: ولألقين في نفوسهم الأماني الباطلة، والمواعيد الكاذبة؛ لأشغلهم بها عن عبادتك وطاعتك، يقال: مناه، إذا وعده المواعيد الباطلة التي يحبها، وما أكثر الذين أوقعهم الشيطان في شراكه بالأماني الباطلة التي مناهم بها، كما حكىٰ الله عنه فيما يقوله لأهل النار يوم القيامة: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾[1].

﴿ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ أي: فليقطعن آذان الأنعام استجابة لأمري، وكان العرب في الجاهلية يفعلونه بالبحائر والسوائب، وهي الحيوانات التي كانوا يسيبونها لآلهتهم، ويتركونها دون أن ينتفعوا بها، وقد حرمها سبحانه فقال: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾[2].

﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ أي: ولآمرنهم بتغيير صورة الأعضاء السوية، إلى ما يظنون أنها أحسن من الصورة التي كانت عليها، كالوشم في الجلد، ووشر الأسنان، والنمص لإزالة الحواجب المستوية، وفي الحديث الشريف عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله، ما لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ، وهو ملعون في كتاب الله[3].

قوله: «وهو ملعون في كتاب الله» يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

---

(١) إبراهيم: الآية ٢٢.

(٢) المائدة: الآية ١٠٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب اللباس (٥٣٤٣).

ويستثنىٰ من ذلك إزالة الشاذ عن أصل الخلقة السوية، وإزالة ما يحصل به ضرر، كإصبع زائدة، أو سن زائدة أو طويلة تعيق عن الأكل والاستعمال، أو إزالة ما نبت لامرأة من لحية أو شارب أوعنفقة، كما يجوز للزوجة التحمير والنقش والتطريف[1] إذا كان بإذن الزوج، لأنه من الزينة[2].

ومن تغيير خلق الله تعالى، العلاقات الجنسية الشاذة عن أصل الفطرة السوية، كاللواطة والسحاق، ويلتحق بهما ما استحدثه الناس مما يسمىٰ التلقيح الاصطناعي وأطفال الأنابيب[3].

وكل ذلك مظاهر على طاعة للشيطان وموالاة له، وقد توعد تعالى من يفعل ذلك بقوله:

﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ [١١٩] أي: ظاهراً، فطاعة الشيطان تؤدي بالإنسان إلى التعب والعناء في الدنيا، وإلى الشقاء والعذاب في نار جهنم يوم القيامة، وتلويث البيئة وإفسادها أكبر شاهد واقعي على التعب والعناء الذي يترتب على تغيير خلق الله المحكم.

والسبب في ذلك أن مواعيده خداع وغرور:

﴿يعدهم ويمنيهم﴾ أي: يعدهم الشيطان بالمواعيد الكاذبة، ويمنيهم بالأماني الخادعة الفارغة، فيتعبون في تحصيلها، ويظلون طول أعمارهم راكضين لاهثين وراءها، فلا يقبضون إلا على الريح، ولا يجنون إلا الحسرة والألم، كما قال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾[4].

﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ [١٢٠] أي: إلا باطلاً وضلالاً وكذباً واحتيالاً، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور * إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[5].

---

(١) هو عملية قص الأظافر وتزيين اليد.
(٢) انظر: فتح الباري ١٠/٣٧٨.
(٣) انظر: الأنساب والأولاد للمؤلف.
(٤) النور: الآية ٣٩.
(٥) فاطر: الآيتان ٥ ـ ٦.

وهو ما قرره سبحانه هنا في قوله:

﴿أولئك﴾ أي: الذين غرهم الشيطان فأطاعوه واتبعوه.

﴿مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً﴾ [١٢١] أي: مفراً أو ملجأ يمتنعون به من النار، فلا بد لهم من ورودها، ولا يعدلون عنها إلى غيرها.

وفي المقابل، بينت الآيات مصير الذين أطاعوا الرحمن، وعصوا الشيطان بقوله سبحانه:

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً﴾ أي: وعده سبحانه وعد حق وصدق لا يتخلف، فهو ليس كوعد الشيطان.

﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾ [١٢٢] أي: لا أحد أصدق من الله تعالى، وهو توكيد لقوله ﴿وعد الله حقاً﴾، وهذه التوكيدات أتت في مقابل مواعيد الشيطان الكاذبة لأتباعه وأوليائه.

ميزان العقاب والثواب

فحياة الإنسان وموته لا يقومان على أساس الأماني الفارغة، والمواعيد الخادعة، التي يلقيها الشيطان في نفوس كثير من الناس:

﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب﴾ أي: ليس الأمر منوطاً بأماني الكافرين المنكرين للمسؤولية والحساب بعد الموت، ولا بأماني أهل الكتاب، الذين أطمعهم الشيطان بالمغفرة والجنة، حتىٰ قالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾[١].

﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[٢].

إنما الأمر منوط بتشريع شرعه العليم الحكيم، أساسه التكليف والمسؤولية، والجزاء القائم على المبدأ التالي:

---

(١) آل عمران: الآية ٢٤.

(٢) البقرة: الآية ١١١.

﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ أي: يعاقب بسببه، إذا أصر عليه ولم يتب عنه، والسوء يشمل كل مخالفة لدين الله وشرعه.

﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ [١٢٣] أي: ولا يجد له يوم القيامة غير الله تعالى ولياً يمنعه، ولا نصيراً ينصره.

هذا هو ميزان الحساب والعقاب، وفي مقابله بينت الآيات ميزان الفضل والثواب بقوله تعالى:

﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثىٰ وهو مؤمن﴾ فالنساء يُثبن على أعمالهن الصالحات كالرجال، وينبغي أن يتمتعن بحقوقهن الإنسانية الكاملة في الدنيا.

﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ [١٢٤] أي: ولا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم مهما كان قليلاً، ومر معنا أن النقير النقرة الصغيرة في النواة، وهو مثل في القلة كالفتيل، قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[١].

أحسن الناس ديناً

ثم أثنىٰ سبحانه على المستسلمين المنقادين لأحكام دينه وشرعه، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وجاء هذا الثناء في مقابل ما مر معنا من قوله سبحانه في المعاندين الجاحدين: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدىٰ﴾.

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾ أي: أسلم نفسه لله تعالى إسلاماً كاملاً، وجعلها سالمة له جل وعلا، منقادة له وحده، ونبه في هذا الاستفهام على أن ذلك منتهىٰ ما تبلغه القوة البشرية[٢].

فأحسن الناس ديناً من يسلم نفسه لله تعالى إسلاماً كاملاً.

﴿وهو محسن﴾ أي: في عمله وعبادته وسلوكه وأخلاقه، وذلك باتباع شرع الله تعالى، والتمسك بسنة النبي ﷺ.

﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي: مائلاً عن سائر ما يخالفها من العقائد والنحل،

---

(١) الزلزلة: الآيتان ٧ ـ ٨.

(٢) تفسير البيضاوي ٢/١٧٤.

فهي ملة التوحيد، التي أمرنا بالتمسك بها، كما قال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾[1].

فأساس ملة التوحيد الإسلام الكامل لرب العالمين.

﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ [١٢٥] أي: بوأه الله تبارك وتعالى هذه المكانة الرفيعة، وتفضل عليه بها لكمال إسلامه واستسلامه له جل وعلا.

والخلة: صفاء المودة، وقيل: الخلة الافتقار والانقطاع، فخليل الله المنقطع إليه، وسمي إبراهيم خليلاً لأنه انقطع إلى الله في كل حال، وقيل: الخلة الاختصاص والاصطفاء، وسمي إبراهيم خليلاً لأنه والى في الله وعادى في الله[2].

وفائدة الإخبار عن هذه المرتبة الرفيعة، التي تفضل بها الله سبحانه على إبراهيم عليه السلام؛ تأكيد وجوب اتباع ملته وطريقته؛ لأن من بلغ من الزلفىٰ عند الله أن اتخذه خليلاً، كان جديراً بأن تتبع ملته وطريقته[3].

وقد أمر الله نبينا ﷺ بذلك بقوله: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[4].

وله سبحانه أن يتفضل على من يشاء من عباده بما يشاء؛ لأنه المالك الخالق:

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وملكاً وتدبيراً.

﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ [١٢٦] إحاطة علم وقدرة، جل وعلا.

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد بينت لنا حقيقة التوحيد وملته، ووجوب التمسك به، بعد أن بينت حقيقة الشرك ومصدره.

---

(١) البقرة: الآيتان ١٣٠ ـ ١٣١.
(٢) انظر: تفسير الخازن ٢/١٧٤.
(٣) تفسير النسفي ٢/١٧٤.
(٤) النحل: الآية ١٢٣.

الفصل السادس

الثبات على الإيمان
والتزام التقوى والعدل

تعظيم حقوق الضعفاء

وعادت الآيات إلى الموضوع الأصلي، الذي أبرزته في صدر السورة، وهو تقرير حقوق الضعفاء في المجتمع وحمايتها، ويبدو أن تشريع ميراث النساء والصغار أثار نوعاً من الدهشة والاستغراب عند بعضهم؛ إذ رأوه تشريعاً جديداً عليهم لم يألفوه، ولم يكن له سابقة في مجتمعهم الجاهلي، فقد كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار، فلما نزلت آيات الميراث قالوا: يا رسول الله، كيف ترث المرأة والصغير؟ فأجابهم بهذه الآية، وذكر بعض المفسرين أن عيينة بن حصن أتىٰ النبي ﷺ فقال: أخبرنا أنك تعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة، فقال عليه الصلاة والسلام: «بذلك أمرت»[1]، وأنزل الله تعالى:

﴿ويستفتونك في النساء﴾ أي: ويستخبرونك في شأن النساء وحالهن، والاستفتاء طلب الفتوى، وهو إظهار ما أشكل من الأحكام الشرعية وكشفه وتبيينه.

﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾ أي: قل الله تعالى يبين لكم حكمه فيهن، فهذه الأحكام شرعها الله تعالى، وما عليكم إلا الإذعان لها والرضا بها، وهذا هو المظهر العملي للاستسلام لله تعالى، الذي مر في الآية السابقة: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾.

وأفاد تقديم لفظ الجلالة (الله) تعظيم شأن هذه الأحكام، وزاد في تعظيمها قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿وما يُتلا عليكم في الكتاب﴾ أي: وهذه الأحكام التي تتلىٰ عليكم موجودة في الكتاب العلوي، وهو اللوح المحفوظ، فهي أحكام إلٰهية علوية، تفيد أن العدل

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/١٧٦.

والإنصاف في حقوق النساء واليتامىٰ من أعظم الأمور عندالله تعالى، فعليكم مراعاتها وعدم الإخلال بها.

وقد يكون المراد من الكتاب القرآن الكريم، والمعنىٰ: إن الله يفتيكم في النساء بما أنزل في كتابه عليكم.

﴿في يتامىٰ النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ أي: ما فرض لهن من الميراث والمهور، وكان الرجل منهم ـ كما سبق ـ يضم اليتيمة ومالها إلى نفسها، فإن كانت جميلة تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها من الزواج وعضلها، حتىٰ لا يشاركه أحد في مالها.

﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ أي: في أن تنكحوهن لجمالهن، أو: عن أن تنكحوهن لدمامتهن. فحذف حرف الجر بعد (ترغبون) أفاد كلا المعنيين.

﴿والمستضعفين من الولدان﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان، وهم الصغار، لكي تورثوهم كما شرع الله في آيات الميراث.

﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ أي: ويأمركم أن تقوموا برعاية حقوق اليتامى والمحافظة عليها بالعدل، كما بينه سبحانه في صدر السورة.

﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ [١٢٧] وهو حث لهم على الاستكثار من فعل الخير، وخاصة في مجال رعاية اليتامى والضعفاء، وحفظ حقوقهم وأموالهم.

اختيار أخف الضررين

ولا يعني تعظيم حقوق الضعفاء، التمسك بها كاملة في جميع الظروف والأحوال، فقد تطرأ أحوال تحتاج المرأة فيها للتنازل عن بعض حقوقها، لحماية ما هو أهم لها منها، وهو ما يسمىٰ في الشريعة الإسلامية: اختيار أخف الضررين لدفع أعظمهما، وهو ما شرعه تعالى في قوله:

﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ أي: خافت من زوجها ترفعاً عليها أو تجافياً عنها.

﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً﴾ أي: لا حرج ولا إثم على الرجل

والمرأة أن يتصالحا بينهما، ويتفقا على أن تتنازل له الزوجة عن شيء من حقوقها، لكي تحافظ على الأسرة، وتبقىٰ الصلة الزوجية قائمة بينهما، كأن تنزل له عن حقها في القسمة، أو عن شيء من مهرها أو نفقتها.

وعن عائشة رضي الله عنها: (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً) قالت: الرجل تكون عنده المرأة، ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل. فنزلت هذه الآية في ذلك[1].

ومعنىٰ قولها: ليس بمستكثر منها، أي: في المحبة والمعاشرة والملازمة. وقولها: أجعلك من شأني في حل، أي: وتتركني من غير طلاق[2].

﴿والصلح خير﴾ أي: الاتفاق خير من الفراق، فالإسلام حريص على سلامة الأسرة واستمرارها.

قال ابن كثير: ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال: ﴿والصلح خير﴾ بل الطلاق بغيض إليه سبحانه وتعالى؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجه، عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[3].

﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي: جبلت الأنفس على الشح، وهو أشد البخل، فهو حاضر معها لا يغيب عنها، فكل واحد من الزوجين يشح بحقه، ولا يتنازل عن شيء منه للآخر لمصلحة الأسرة.

ثم حث سبحانه على مقاومة الطبع ومتابعة الشرع فقال:

﴿وإن تحسنوا﴾ أي: تحسنوا معاشرة أزواجكم وتصبروا عليهن وإن كرهتموهن، مراعاة لحق الصحبة وبقاء الأسرة.

﴿وتتقوا﴾ أي: وتتقوا الله في حق المرأة، فلا تظلموها ولا تجوروا عليها.

﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ [١٢٨] فيجازيكم بأعمالكم ويثيبكم على إحسانكم.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير (٤٦٠١).
(٢) فتح الباري ٨/٢٦٦.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٤٥.

العدل بين الزوجات

ثم واجهت الآيات الرجال المتزوجين بأكثر من امرأة، بحقيقة الضعف البشري عن إقامة العدل الكامل، الشامل للأمور المادية والمعنوية بين نسائهم، بقوله تعالى:

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ أي: مهما حرصتم على العدل والتسوية بينهن، فلن تستطيعوا ذلك؛ لأن الإنسان لا يستطيع التحكم بعواطفه ومحبته، فيميل إلى واحدة أكثر من الأخرى بدون إرادته.

وقد جاء في الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني القلب[1].

وبما أن التكليف في الشريعة الإسلامية منوط بالوسع والقدرة بقوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾[2]، فلا يكلف الرجل أن يعدل بين نسائه في الأمور العاطفية، كالمحبة والميل، ومع ذلك لا يجوز له أن يميل إلى المرأة التي يحبها ميلاً كاملاً، بحيث يعرض عن الأخرىٰ:

﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ أي: فلا تبالغوا بالميل إلى واحدة منهن.

﴿فتذروها كالمعلقة﴾ أي: حتىٰ تصبح الأخرى كالمعلقة، لا هي ذات زوج ولا مطلقة، فهذا ظلم محظور في الإسلام، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط» أي: مائل، كما جاء في رواية أبي داود[3].

ثم شجعت الآية الأزواج الذين يسيئون معاشرة نسائهم على الإصلاح، وترك سوء المعاشرة، بقوله تعالى:

﴿وإن تصلحوا﴾ أي: ما مضىٰ من سوء المعاشرة لنسائكم.

﴿وتتقوا﴾ أي: تتقوا الله تعالى في ذلك، فتقبلوا عليه تائبين مستغفرين.

---

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن.

(٢) البقرة: الآية ٢٨٦.

(٣) رواه أصحاب السنن والحاكم وصححه، انظر: الترغيب والترهيب ٣/ ٦٠.

﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ [١٢٩] أي: يغفر لكم ما مضىٰ من سوء المعاشرة ويرحمكم.

وقد مر معنا أن النبي ﷺ، بين فضيلة التزام الحق والعدل، في جميع شؤون الحياة، وخاصة مع الأهل في داخل الأسرة، وفي كل من كانت له عليه ولاية، فقال: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[1].

وإن لم يتمكن الزوجان من الصلح، واستمر الخلاف قائماً بينهما، وتعذرت إزالته، فيمكنهما في هذه الحالة أن يفترقا، لقوله تعالى:

﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته﴾ أي: من فضله وغناه سبحانه، وفي هذا تسلية لكل واحد من الزوجين بعد الطلاق ووقوع الفراق.

﴿وكان الله واسعاً﴾ أي: في فضله ورحمته وغناه.

﴿حكيماً﴾ [١٣٠] في كل ما يشرع من أحكام.

وتشريع الطلاق في مثل هذه الحالة، عندما يتعذر إزالة الخلاف بين الزوجين، تشريع حكيم، فيه درء لمفاسد كثيرة وخطيرة، تترتب على إجبار الزوجين المتنازعين أن يعيشا مع بعضهما، وهما في تنافر وخصام مستمرين، فإن هذا يؤثر على الأولاد، ويمتد فساده إلى المجتمع المحيط بالأسرة.

وبعد أن كانت كثير من الدول النصرانية تنكر على المسلمين تشريع الطلاق، تراجعوا عن إنكارهم، وأقروه في مجالسهم التشريعية، بعد أن تفاقمت الأضرار والمفاسد الاجتماعية المترتبة على منعه.

الوصية الخالدة

يتوقف الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية وتطبيقها، على مدى شعور كل من الزوجين بمراقبة الله تعالى وخشيته، وهو ما دأبت آيات السورة من أولها على تقويته في النفوس وتمكينه في القلوب، فلقد رأينا في أول آية كيف تكرر الأمر بالتقوىٰ، وكيف ختم تعالى الآية بقوله: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ واستمرت الآيات على ذلك، وخاصة في خواتيمها.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة (١٨٢٧).

وها هي بعد أن تقرر أنه تعالى له ملك السموات والأرض، تبين أن التقوى هي وصيته الخالدة لجميع الناس، في كل كتاب أنزل وعلى لسان كل نبي أرسل.

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾ أي: بخشيته وطاعته والتزام شرائعه، فالتقوى وصية قديمة ما يزال سبحانه يوصي عباده بها.

﴿وإن تكفروا﴾ أي: إن تجحدوا وصيته وتعرضوا عنها.

﴿فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي: فاعلموا أن له تعالى ما في السموات وما في الأرض، فهو غني عنكم وعن عبادتكم وطاعتكم وتقواكم، كما قال تعالى إخباراً عما قاله موسى لقومه: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾[1].

وكذلك قال هنا أيضاً:

﴿وكان الله غنياً حميداً﴾ [١٣١] أي: كان سبحانه ولا يزال غنياً عن عباده، محموداً في كل ما يقدره ويشرعه.

ثم أكد تعالى هذا المعنىٰ، مبيناً كمال رقابته على خلقه وكمال قدرته عليهم، فقال:

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكفىٰ بالله وكيلاً﴾ [١٣٢] أي: شهيداً على كل شيء وحافظاً له.

﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾ فهو غني عنكم، ووجودكم ليس أمراً لازماً، فهو منوط بمحض مشيئته تعالى وقدرته.

﴿وكان الله على ذلك قديراً﴾ [١٣٣] ولا يخفىٰ ما في الآية من تحدٍ للناس، وبيان شدة افتقارهم جميعاً لله تعالى في إيجادهم وإمدادهم، قال تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[2].

قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا لم يطيعوا أمره، وقال تعالى:

---

(١) إبراهيم: الآية ٨.
(٢) محمد: الآية ٣٨.

﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز﴾[1].

فالخير كل الخير في طاعته تعالى وتقواه، ففي ذلك خير الدنيا والآخرة:

﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ أي: فاعلم يا من همه في الدنيا، أن عنده تعالى خير الدنيا والآخرة، فإذا ما أقبلت على عبادته وطاعته، وتمسكت بشريعته، أعطاك وأغناك في الدنيا والآخرة، فالعطاء فيهما منوط بمشيئته وحده، كما قال سبحانه: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾[2]

فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، ولتكن همته سامية إلىٰ نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾[3].

فما لطلاب الدنيا يطلبون أخسهما، ويحرمون أنفسهم من خير الآخرة الباقي، الذي لا يفنىٰ ولا يبيد، ويعرضون أنفسهم لعذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾[4].

﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ [١٣٤].

وقد جمعت الآية بين الوعد والوعيد، فضلاً عن رفعها لهمم الناس عن حصر اهتمامهم بالدنيا وقصر نشاطهم عليها.

التزام العدل والثبات عليه

ومن المظاهر العملية لتقوى الله تعالى، التمسك بمبدأ العدل في مختلف الشؤون، في الحكم والشهادة والتعامل مع الآخرين، وعدم الانحراف عنه مراعاة لمصالح شخصية وصلات اجتماعية، قال تعالى:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٤٦. والآيتان من سورة إبراهيم: الآيتان ١٩ ـ ٢٠.
(٢) الإسراء: الآية ١٨.
(٣) الشورىٰ: الآية ٢٠.
(٤) هود: الآيتان ١٥ ـ ١٦.

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ أي: كونوا مواظبين على العدل، مجتهدين في إقامته، فالقوام بالقسط: المبالغ في القيام بالعدل في جميع الأحوال.

﴿شهداء لله﴾ أي: تقيمون شهاداتكم بحق وصدق لوجه الله تعالى.

﴿ولو على أنفسكم﴾ أي: ولو كانت الشهادة على أنفسكم، كالإقرار بالحق.

﴿أو الوالدين والأقربين﴾ أي: أو كانت على الوالدين والأقربين، فعليكم أن تتمسكوا بالعدل وتقولوا الحق، ولو على أنفسكم أو على الوالدين والأقربين، فأقيموا الشهادة عليهم لله تعالى.

﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ أي: إن يكن المشهود عليه غنياً أو فقيراً، فالله أولىٰ بهما منكم، فكلوا أمرهم إلى الله تعالى، فهو أعلم بحالهم منكم، فلا تحابوا غنياً لغناه، ولا ترحموا فقيراً لفقره، واشهدوا بالحق والصدق.

﴿فلا تتبعوا الهوىٰ أن تعدلوا﴾ أي: فلا تتأثروا بهوى أنفسكم فتعدلوا عن الحق في أداء الشهادة.

﴿وإن تلووا﴾ أي: تلووا ألسنتكم إلى غير الحق، فاللي هو التحريف وتعمد الكذب.

﴿أو تعرضوا﴾ أي: تعرضوا عن أداء الشهادة بكتمانها، وقد نهىٰ سبحانه عن كتمانها فقال: ﴿ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾[1].

وختم سبحانه الآية بتهديد الفريقين، المحرفين للشهادة والكاتمين لها، فقال:

﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ [١٣٥] وسيجازيكم عليه.

ففي الآية تربية وتهذيب للمسلمين، وتعويد لهم على التزام الحق والصدق في الحكم والشهادة، مهما كانت الأحوال والظروف، ولا يخفىٰ ما فيها أيضاً من صلة بحادثة بني الأبيرق، وتأديب قومهم الذين جادلوا عنهم، وحاولوا دفع التهمة عنهم إلى غيرهم.

---

(١) البقرة: الآية ٢٨٣.

الدوام على الإيمان والثبات عليه

وكما أمر تعالى المؤمنين بالدوام على مبدأ العدل وقول الحق ، في جميع الأحوال والظروف، أمرهم أيضاً بالثبات على الإيمان والتمسك بأركانه؛ لأنه الأصل الذي يقوم عليه العدل والحق:

﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله﴾ أي: اثبتوا على الإيمان بالله ودوموا عليه.

﴿ورسوله﴾ أي: وآمنوا بصدق رسوله محمد عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته.

﴿والكتاب الذي نزل على رسوله﴾ أي: وآمنوا بالقرآن الكريم.

﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ أي: وآمنوا بكل كتاب أنزله تعالى من قبله، كالتوراة والإنجيل. وأشار قوله: ﴿نزل على رسوله﴾ وقوله: ﴿أنزل من قبل﴾ إلى أن القرآن الكريم نزل مفرقاً منجماً بخلاف الكتب قبله.

﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر﴾ وهي أركان الإيمان الأساسية، فمن يكفر بواحد منها:

﴿فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ [١٣٦] أي: ابتعد كثيراً عن الإيمان، فالكفر بواحد منها كفر بها كلها.

وبعد دعوة المؤمنين للثبات على الإيمان، والتمسك بجميع أركانه، توعدت الآيات المترددين بين الإيمان والكفر بقوله تعالى:

﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً﴾ أي: بالإصرار عليه حتىٰ الموت.

﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ لأنه تعالى لا يغفر الكفر والشرك، كما مر في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾.

﴿ولا ليهديهم سبيلاً﴾ [١٣٧] أي: ولا يهديهم إلى طريق النجاة من العذاب، بسبب تمسكهم بالكفر وإصرارهم عليه.

تحريم الجلوس في مجالس الكفر والمعاصي

ولما كان التردد بين الإيمان والكفر شأن المنافقين، أمر الله النبي ﷺ أن يخبرهم بالعذاب الأليم الذي ينتظرهم، بأسلوب التهكم:

﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾ [١٣٨] أي: أخبرهم يا محمد، بأن لهم عند الله عذاباً أليماً، ووضع (بشر) مكان: أخبر؛ تهكماً بهم.

﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ أي: الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أنصاراً وأحباباً، ويعرضون عن المؤمنين، مع أنه سبحانه حرم ذلك في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[١]، وقال أيضاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾[٢].

﴿أيبتغون عندهم العزة﴾ أي: أيطلبون العزة والمنعة بموالاة الكفار؟ وهو سؤال إنكار وتوبيخ.

﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ [١٣٩] أي: فإن العزة بمشيئته وقدرته تعالى، يعز من يشاء ويذل من يشاء، صرح بذلك في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿من كان يريد العزة فللَّه العزة جميعاً﴾[٤]، وقال أيضاً: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[٥].

﴿وقد نزل عليكم في الكتاب﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتىٰ يخوضوا في حديث غيره﴾ فقد كان المشركون يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم، مستهزئين به، فنُهي المؤمنون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه، وأنزل الله في ذلك قوله الكريم: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتىٰ يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾[٦].

---

(١) المائدة: الآية ٥١.
(٢) التوبة: الآية ٢٣.
(٣) آل عمران: الآية ٢٦.
(٤) فاطر: الآية ١٠.
(٥) المنافقون: الآية ٨.
(٦) الأنعام: الآية ٦٨.

ثم إن اليهود في المدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين، وكان المنافقون يجلسون إليهم، ويخوضون معهم في الاستهزاء بالقرآن الكريم.

﴿إنكم إذاً مثلهم﴾ أي: إنكم في الوزر مثلهم؛ لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو إنكم مثلهم في الكفر إن رضيتم بذلك. قال العلماء: وهذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر أو خالط أهله، كان بالإثم بمنزلتهم، إذا رضي به وإن لم يباشره[1].

﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾ [١٤٠] لأنهم كانوا يجتمعون على الكفر بآيات الله تعالى والاستهزاء بها.

من صفات المنافقين ومواقفهم

واستطردت الآيات إلى بيان بعض صفات المنافقين، وبيان مواقفهم من المسلمين، بقوله تعالى:

﴿الذين يتربصون بكم﴾ أي: ينتظرون ما ينزل بكم من خير أو شر. ويدل سياق كلمات الآية على أن المنافقين يتربصون في أثناء الجهاد، وقد تخلفوا عنه، منتظرين ما يسفر عنه من نصر المسلمين أو هزيمتهم.

﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ أي: تحقق لكم نصر من الله تعالى.

﴿قالوا ألم نكن معكم﴾ أي: ادعى المنافقون أنهم كانوا معكم؛ ليشاركوكم في الغنيمة.

﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ أي: وإن كان للكافرين ظهور على المسلمين.

سمى الله ظفر المسلمين فتحاً تعظيماً لشأنهم، بينما سمى ظفر الكافرين نصيباً تخسيساً لحظهم؛ لأنه لحظة من الدنيا يصيبونها[2].

﴿قالوا ألم نستحوذ عليكم﴾ أي: قال المنافقون: ألم نتمكن من قتالكم وقتلكم، فأبقينا عليكم ولم نفعل ذلك، والاستحواذ: الاستيلاء والغلبة والتمكن.

---

(١) تفسير الخازن ٢/١٨٨.

(٢) تفسير النسفي ٢/١٨٨.

﴿ونمنعكم من المؤمنين﴾ وذلك بتخذيلهم عن قتالكم، وإفشاء أسرارهم لكم، فأعطونا نصيباً مما غنمتم.

فغاية المنافقين تحقيق المنافع المادية، لا يهتمون بدين أو مبدأ، فهم عبيد الدرهم والدينار، يقفون معه حيث يكون.

﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ أي: فالله سبحانه يفصل بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، عندما تبلىٰ السرائر وتنكشف الضمائر، فلا ينتفع المنافقون بما كانوا يتظاهرون به في الدنيا.

﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ [١٤١] أي: في يوم القيامة، أو في الدنيا بتسليط الكافرين على المؤمنين تسليطاً كاملاً يؤدي إلى استئصالهم، يمكن أن يحصل للكافرين ظفر على المؤمنين في بعض الأحيان، ابتلاءً للمؤمنين وتمحيصاً، ولكن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

ويمكن أن ينصرف المعنىٰ إلى الظهور بالحجة والبرهان، والمؤمنون دائماً أعلى حجة وأقوى برهاناً.

وقد يكون المراد ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ ما دام المؤمنون متمسكين بدينهم، كما قال تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾[٢] فما غُلب المسلمون إلا بسبب تفرقهم وتخاذلهم وبعدهم عن أحكام دينهم وشريعتهم.

ويكون قوله تعالى على هذا، رداً على المنافقين فيما أملوه ورجوه، من زوال دولة المؤمنين وظهور الكافرين عليهم.

﴿إن المنافقين يخادعون الله﴾ أي: بزعمهم وظنهم، مما يدل على غبائهم وجهلهم، فالله سبحانه لا يخادع؛ لأنه العالم بالسرائر والضمائر.

والخديعة: الحيلة والمكر، وأصل معناها في اللغة الإخفاء، والمخادع يظهر ضد ما يضمر، قال تعالى: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾[٣].

---

(١) محمد: الآية ٧.
(٢) الحج: الآية ٤٠.
(٣) البقرة: الآية ٩.

﴿وهو خادعهم﴾ أي: وهو سبحانه يعاملهم معاملة المخادع لهم؛ لأنه يعلم سرائرهم وضمائرهم يملي لهم استدراجاً وزيادة في ضلالهم وطغيانهم، ثم يخذلهم ويحرمهم من المنافع الدنيوية التي تعلقت بها نفوسهم، فلا يجدون إلا الحسرة والألم، ويحشرهم يوم القيامة مع المؤمنين في أول الأمر، ثم يعزلهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾[1].

وبعد أن كشفت الآيات سرائر المنافقين، وصفت ظواهرهم وبينت مواقفهم:

﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ أي: قاموا إليها متثاقلين كارهين؛ لأنهم لا يتذوقون حلاوتها، ولا يشعرون بلذة مناجاة الله تعالى فيها؛ بسبب ظلمة الكفر التي تملأ قلوبهم.

﴿يراؤون الناس﴾ أي: لا يقومون إلى الصلاة إيماناً واحتساباً، وإنما يقومون إليها رياءً وسمعة.

﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ [١٤٢] أي: لا يذكرون الله في صلاتهم إلا ذكراً قليلاً بألسنتهم؛ لأنهم في صلاتهم ساهون لاهون.

وفي الحديث الشريف عن أنس أن رسول الله ﷺ وصف الذي يؤخر الصلاة عن وقتها فقال: «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتىٰ إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»[2].

﴿مذبذبين بين ذلك﴾ أي: متحيرين مترددين بين الإيمان والكفر.

﴿لا إلىٰ هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ أي: لا يعدون من المؤمنين ولا من الكافرين، فالقوم لا هوية لهم ولا مبدأ، مبدؤهم ـ كما مر ـ مصالحهم المادية، يدورون معها حيث تدور، وهذا شأن كثير من الناس في هذا العصر، بسبب حياتهم في ظل الحضارة المادية الغربية، مما يدل على كثرة النفاق وذيوعه بين الناس.

﴿ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ [١٤٣] أي: طريقاً إلى الهدى، كما قال

---

(١) الحديد: الآية ١٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المساجد (٦٢٢).

تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[1].

ثم التفتت الآيات إلى المؤمنين، تنهاهم عن التشبه بالمنافقين، وموالاة الكافرين:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ [١٤٤] أي: أتريدون بموالاة الكفار أن تجعلوا لله عليكم حجة ظاهرة تستحقون بموجبها العذاب، فالله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه باستحقاقه العذاب.

﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ أي: في أسفل طبقات النار، فهم أشد الناس عذاباً، فاحذروا أن تكونوا مثلهم وتتشبهوا بهم.

﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾ [١٤٥] يخرجهم من العذاب أو يدفعه عنهم.

ثم فتحت الآيات للمنافقين باب التوبة؛ حثاً لهم على ترك النفاق:

﴿إلا الذين تابوا﴾ أي: عن النفاق.

﴿وأصلحوا﴾ أي: ما أفسدوا من نياتهم وأعمالهم في أثناء نفاقهم.

﴿واعتصموا بالله﴾ أي: تمسكوا بدينه تعالى ووثقوا به جل جلاله وحده.

﴿وأخلصوا دينهم لله﴾ أي: جعلوا طاعتهم وعبادتهم لله تعالى وحده، خالصة عن كل رياء وشرك.

﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ أي: في عداد المؤمنين في الدنيا والآخرة.

﴿وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ [١٤٦] يعمهم جميعاً، المؤمنين في الأصل والتائبين عن النفاق.

﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ أي: الله سبحانه غني عن تعذيبكم، فعذابكم منوط بكفركم وجوداً وعدماً، فإذا ما زال عنكم الكفر وحل محله الإيمان والشكر، انتفىٰ عنكم العذاب.

﴿وكان الله شاكراً﴾ أي: يرضىٰ بالقليل من أعمال عباده، ويجزي عليها الثواب الجزيل.

---

(١) النور: الآية ٤٠.

﴿عليماً﴾ [١٤٧] بأحوالهم وحقيقة أعمالهم.

التشهير بالظالمين وفضحهم

ومن الوسائل التي شرعها الله تعالى للمظلومين، لدفع الظلم عنهم وتحصيل حقوقهم، التشهير بالظالمين وفضحهم بين الناس، وقد أثبتت الوقائع جدوى هذه الوسيلة في ردع الظالمين عن ظلمهم، وخاصة في العصر الحاضر، بعد أن أصبح لوسائل الإعلام تأثير قوي على الناس؛ ولهذا نرى الطغاة المستبدين، عندما يتسلمون مراكز السلطة، يبادرون إلى تسخير رجال الإعلام ووسائله لخدمة أغراضهم، والتستر على طغيانهم وظلمهم وفسادهم.

﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول﴾ أي: لا يحب الله سبحانه إعلان السوء والقول القبيح.

﴿إلا من ظلم﴾ أي: إلا جهر من ظلم، وقد يكون الاستثناء منقطعاً، ويكون المعنىٰ: لكن المظلوم يجوز أن يجهر بظلم الظالم.

قال العلماء: لا يجوز إظهار أحوال الناس المستورة المكتومة؛ لأن ذلك يصير سبباً لوقوع الناس في الغيبة، ووقوع ذلك الشخص في الريبة، لكن من ظلم فيجوز له إظهار ظلمه فيقول: سرق مني، أو غصب مني، ونحو ذلك، وإن شوتم جاز له أن يشتم بمثله، ولا يزيد شيئاً على ذلك[١].

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المستبان ما قالا فعلىٰ البادىء، ما لم يعتد المظلوم»[٢].

فالتشهير بالظالمين وفضحهم أمر مشروع في الإسلام، وهو من قبيل الانتصار للمظلومين عليهم، ودفع ظلمهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين. ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾[٣]

---

(١) تفسير الخازن ٢/١٩٥.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر (٢٥٨٧).

(٣) الشورى: الآيات ٤٠ - ٤٢.

وللمظلوم أيضاً أن يدعو على ظالمه، وهو من قبيل الانتصار للمظلوم على الظالم، وذكره بعضهم في معنىٰ قوله تعالى: ﴿إلا من ظلم﴾، وفي الحديث الشريف أنه عليه الصلاة والسلام قال لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن: «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[1] وقوله: «حجاب» أي: ليس لها صارف يصرفها ولا مانع، والمراد أنها مقبولة وإن كان عاصياً، كما جاء في حديث أبي هريرة عند أحمد مرفوعاً «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه» وإسناده حسن[2].

﴿وكان الله سميعاً عليماً﴾ [١٤٨] أي: يسمع دعاء المظلومين، ويعلم ظلم الظالمين.

ومما يدل على أن التشهير بالظالمين وسيلة ناجعة لكفهم عن ظلمهم، الحديث الذي رواه الحافظ البزار عن أبي هريرة، أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له «أخرج متاعك فضعه على الطريق» فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فكل من مر به قال: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني، فيقول اللهم العنه، اللهم أخزه، فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، والله لا أوذيك أبداً[3].

ومع أنه تعالى أعطى المظلومين حق الانتصار من الظالمين، حث المظلومين على العفو عمن ظلمهم عند التمكن منهم، فقال:

﴿إن تبدوا خيراً﴾ أي: مكان الجهر بالسوء.

﴿أو تخفوه﴾ أي: تخفوا الخير فتعملوه سراً.

﴿أو تعفوا عن سوء﴾ أي: تعفوا عن مظلمة، وتتركوا التشهير بالظالم والانتقام منه.

﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ [١٤٩] أي: إنه تعالى كان ولم يزل ذا عفو عن أصحاب المعاصي والآثام، مع قدرته على عقابهم، فاعفوا أنتم عمن ظلمكم إذا تاب عن ظلمه وكف عنه.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة (١٤٩٦).
(٢) فتح الباري ٣/٣٦٠.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٥٢.

فالانتقام من الظالم عدل، والعفو عنه عند المقدرة عليه فضل وإحسان، شجع عليه تعالى في عدد من الآيات، منها قوله الكريم: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾[2].

(١) النحل: الآية ١٢٦.
(٢) الشورىٰ: الآية ٤٣.

الفَصل السَابع

عَقَائِدُ أَهْلِ الكِتَاب

كفر الجاحدين لرسالة الإسلام

ومن الضروري بعد أن تحدثت الآيات فيما سلف، عن مواقف أهل الكتاب من النبي ﷺ، ومعارضتهم لدعوته، وبعد أن بينت الآفات النفسية الخطيرة التي ابتلوا بها، والتي دفعتهم إلى العدوان على الناس وانتهاك حرمة حقوقهم، من الضروري أن تكشف زيغهم عن الحق، وانحرافهم عن عقيدة التوحيد، التي دعا إليها جميع الأنبياء والمرسلين.

ولعل سبب تأخير هذا الحديث المتعلق بعقائد أهل الكتاب إلى ختام السورة تقريباً، ليأتي في مقابل ما سبق من الحديث عن الإيمان وحقيقة وأركانه، وعن الإسلام لله تعالى والانقياد لأحكام دينه وشرعه، وعن الطاعة الكاملة لرسول الله ﷺ، والتمسك بسنته، وعن وصية الله الخالدة لجميع الأنبياء والمرسلين، بالتزام التقوى والتمسك بمبدأ العدل واحترام حقوق الناس.

فإذا ما أتىٰ بعد ذلك الحديث عن عقائد أهل الكتاب، تم التقابل وظهرت معالم الطريق الحقيقي الذي يجب على جميع الناس أن يسيروا عليه، والذي تصان لهم به كرامتهم وحقوقهم.

أبرزت الآيات في مستهل عرضها لعقائد أهل الكتاب، تفريقهم للإيمان بين الرسل، فهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، مع أنهم كلهم دعوا إلى توحيد الحق سبحانه وعبادته وحده، والاستسلام لأحكام شرعه، والكفر ببعض الرسل كفر بهم جميعاً، والإيمان بهم جميعاً ركن أساسي من أركان الإيمان ـ كما تقدم ـ.

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ أي: بحسب ما تقتضيه آراؤهم وتؤدي إليه مذاهبهم.

﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ أي: نؤمن ببعض الأنبياء والرسل ونكفر ببعضهم، وهذا هو سبب كفرهم بالله تعالى ورسله.

﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ [١٥٠] أي: يريدون أن يتخذوا طريقاً وسطاً، بين الإيمان والكفر، ولا توسط في ذلك، والحق كل لا يتجزأ، والإيمان بالله تعالى لا يتم إلا بالإيمان بجميع رسله.

﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ أي: أولئك المفرقون بين الله ورسله في الإيمان، هم الكافرون كفراً محققاً، وهو ما فعله أهل الكتاب من اليهود والنصارى، صدق اليهود بموسى والأنبياء، وكفروا بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وصدق النصارى بعيسى والأنبياء وكفروا بمحمد ﷺ.

﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ [١٥١] أي: يهانون فيه ويذلون.

﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾ أي: لم يفرقوا في الإيمان بينهم، بل آمنوا بهم جميعاً، كما قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[1].

﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [١٥٢] ففي الآية ترغيب لأهل الكتاب بالإيمان برسالة محمد ﷺ، خاتمة الرسالات، فإذا آمنوا بها غفر لهم تعالى ما سلف منهم في حال كفرهم، وأعطاهم أجوراً مضاعفة.

جحود وعناد

ثم شرعت الآيات تعدد بإيجاز، مواقف الجحود والعناد التي وقفها أهل الكتاب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبدأت بموقف لهم من خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ:

﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ أي: يسألك يا محمد أهل الكتاب، وهم أحبار اليهود، جاؤوا إلى الرسول ﷺ، وطلبوا منه أن ينزل الله عليهم كتاباً مكتوباً من السماء، كما نزل التوراة على موسى، فرد تعالى عليهم، مبيناً أن سؤالهم هذا سؤال تعنت وجحود وعناد، لا سؤال إيمان وتصديق، فقال:

---

(١) البقرة: الآية ٢٨٥.

﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾ أي: فقد سأل أسلافهم موسى سؤالاً أكبر عناداً وجحوداً وتعنتاً.

﴿فقالوا أرنا الله جهرة﴾ أي: عياناً.

﴿فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ أي: بسبب ظلمهم، وهو تعنتهم وسؤالهم أمراً في غير موضعه، فقد اختارهم موسى ليذهبوا معه إلى موضع مناجاته ربه، لكي يستغفروا الله عن عبادة العجل، كما مر تفصيل قصتهم في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتىٰ نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾[1].

﴿ثم اتخذوا العجل من بعدما جاءتهم البينات﴾ أي: وأعظم من ذلك شناعة وقبحاً، عبادتهم العجل الذهبي، بعد المعجزات الكثيرة التي أجراها الله تعالى لهم على يد موسى عليه السلام.

﴿فعفونا عن ذلك﴾ أي: تجاوزنا عن كل ذلك تفضلاً منا وإحساناً.

﴿وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ [١٥٣] أي: حجة ظاهرة على من خالفه.

﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ أي: ورفعنا فوقهم جبل الطور؛ تهديداً لهم عندما رفضوا إعطاء العهد والميثاق على العمل بأحكام التوراة والتمسك بها، وقد ذكر تعالى ذلك في عدد من الآيات الكريمة، كقوله سبحانه: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾[3].

﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ أي: ادخلوا باب القرية التي أذن الله لهم بدخولها دخول الخاضعين له تعالى، فخالفوا أمره، كما أخبر سبحانه عنهم في قوله الكريم: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي

---

(١) البقرة: الآيتان ٥٥ ـ ٥٦.
(٢) البقرة: الآية ٦٢.
(٣) الأعراف: الآية ١٧١.

قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾[1].

﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ أي: لا تتجاوزوا أمره تعالى في يوم السبت، فخالف بعضهم أمره واحتالوا على شرعه، وأخبر سبحانه عن ذلك في قوله الكريم: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾[2].

﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ [١٥٤] أي: أخذ سبحانه منهم عهداً مؤكداً شديداً لكي يلتزموا أمره وشرعه.

كفر متوارث

ماذا كانت نتيجة ذلك كله:

﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي: غضبنا عليهم ولعناهم وفعلنا بهم ما فعلنا بسبب نقضهم ميثاقهم.

﴿وكفرهم بآيات الله﴾ أي: وبسبب كفرهم بآيات الله تعالى التي أنزلها عليهم في التوراة.

﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ كزكريا ويحيىٰ عليهما السلام.

﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾ أي: قلوبنا محجوبة عن دعوتك ورسالتك، وهو ما قالوه لخاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، عندما دعاهم إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾[3].

وقال تعالى هنا في معرض الرد عليهم:

﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ أي: بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم وعنادهم.

﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ [١٥٥] أي: فلا يؤمن منهم إلا عدد قليل، استجابوا لدعوة الإسلام، كعبدالله بن السلام، وزيد بن سعنة.

---

(١) البقرة: الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) البقرة: الآيتان ٦٥ ـ ٦٦.

(٣) البقرة: الآية ٨٨.

﴿وبكفرهم﴾ أي: وبسبب كفرهم في أمر عيسىٰ عليه السلام.

وتأمل كم مرة وصفوا بالكفر، فكفرهم متوالي عليهم، ومتعاقب تعاقب أجيالهم، فهو كفر عريق متوارث فيهم، ينتقل من السلف إلى الخلف.

﴿وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ [١٥٦] أي: وافترائهم على مريم فرية عظيمة، فقد اتهموها زوراً وكذباً بالزنا، عندما قالوا لها: ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾[١].

﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي: وبسبب ادعائهم الكاذب أنهم قتلوا عيسى ابن مريم رسول الله، وجاء وصفهم له بالرسالة على سبيل الاستهزاء والعناد.

ونفىٰ سبحانه ادعاءهم الكاذب هذا نفياً قاطعاً، بعد أن حكاه مباشرة، فقال:

﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ أي: اشتبه عليهم أمره عليه السلام، فأخذوا غيره فقتلوه، أما عيسى عليه السلام فرفعه تعالى إلى السماء، كما ذكر تعالى في قوله الكريم: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾[٢].

﴿وإن الذين اختلفوا فيه﴾ أي: اختلفوا في شأن عيسى عليه السلام.

﴿لفي شك منه﴾ أي: لفي تردد وحيرة.

﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ أي: ليس لهم علم بحقيقة ما حدث لعيسىٰ عليه السلام، لكنهم يتبعون الظن.

﴿وما قتلوه يقيناً﴾ [١٥٧] أي: وما قتلوه قتلاً يقيناً كما زعموا بقولهم: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾.

﴿بل رفعه الله إليه﴾ أي: بل الحقيقة أن الله تعالى رفعه إليه، ونجاه من مكرهم وكيدهم، فهو حي في السماء، وسينزل قبيل قيام الساعة فيقتل الدجال ويكسر الصليب، كما سيأتي في الحديث الشريف الصحيح.

---

(١) مريم: الآية ٢٨.

(٢) آل عمران: الآية ٥٥.

﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ [١٥٨] أي: وكان الله ولا يزال قوياً لا يغلب، حكيماً في كل ما قدر وشرع[١].

﴿وإن من أهل الكتاب﴾ أي: وما من أحد من أهل الكتاب.

﴿إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ أي: إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام الإيمان الصحيح بأنه عبد الله ورسوله، قبل موت عيسى عليه السلام، بعد نزوله إلى الأرض، فالمراد أهل الكتاب الموجودون في زمن نزول عيسى إلى الأرض، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد عموم أهل الكتاب، وردوا الضمير إلى الكتابي عندما يموت، وهذا الإيمان لا ينفعه لأنه جاء متأخراً عند اليأس من الحياة، لكن الأحاديث الشريفة الصحيحة، التي بلغت مبلغ التواتر، والتي تحدثت عن نزول عيسى قبيل قيام الساعة إلى الأرض، تقوي الرأي الأول، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب ـ وفي رواية: الجزية ـ ويفيض المال حتىٰ لا يقبله أحد، حتىٰ تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾[٢].

وهذا مصير من أبي هريرة إلى أن الضمير في قوله تعالى: ﴿إلا ليؤمنن به﴾ وكذا في قوله: ﴿قبل موته﴾ يعود على عيسى، أي: إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وبهذا جزم ابن عباس فيما رواه ابن جرير من طريق سعيد بن جبير عنه بإسناد صحيح، ومن طريق أبي رجاء عن الحسن قال: قبل موت عيسى، والله إنه الآن لحي، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون، ونقله عن أكثر أهل العلم، ورجحه ابن جرير وغيره[٣].

﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ [١٥٩] أي: شهيداً على أنه بلغهم رسالة ربه، وأقر بالعبودية على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك

---

(١) انظر: التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران ص ٦٤.

(٢) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء (٣٤٤٨).

(٣) فتح الباري ٦/٤٩٢.

أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾[1].

عدوان أهل الكتاب على حقوق الناس

وكما اعتدى اليهود من أهل الكتاب على الأنبياء، فقتلوا بعضهم وافتروا على بعضهم، فاتهموهم بتهم كاذبة باطلة، كذلك اعتدوا على كثير من الناس، فبغوا عليهم وظلموهم وأكلوا حقوقهم، وهو ما أخبر عنه تعالى بقوله:

﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ أي: بسبب الظلم الذي فعله اليهود حرم الله عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾[2].

﴿وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾ [١٦٠] أي: وبسبب منعهم كثيراً من الناس عن الإيمان بالله تعالى، والاستجابة لدعوة رسله، وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه، ووقائع التاريخ شواهد عليها.

﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾ أي: وبسبب أكلهم الربا مستحلين له، وقد حرمه تعالى عليهم، فهم الذين ابتدعوا هذه النظم الاقتصادية القائمة على الربا، والتي يتمكنون بها من امتصاص خيرات الأمم والشعوب في جنبات الأرض.

﴿وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾ أي: وبسبب عدوانهم على أموال الناس، وأكلهم لها بالطرق المحرمة، كالرشوة والغش والقمار والغصب...

لهذه الأسباب كلها شدد الله تعالى عليهم في الدنيا، وحرم عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم، وأما في الآخرة:

﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ [١٦١].

ثم استثنى تعالى المؤمنين منهم، كعبدالله بن سلام وأصحابه، فقال:

---

(١) المائدة: الآيتان ١١٦ - ١١٧.
(٢) الأنعام: الآية ١٤٦.

﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ أي: الثابتون في العلم المتمكنون فيه، أو الذين يعملون بعلمهم، ولما علموا من صفات النبي ﷺ، ما أوصلهم إلىٰ الإيمان به والتصديق برسالته، آمنوا وصدقوا.

﴿والمؤمنون﴾ أي: وعامة المؤمنين من المهاجرين والأنصار.

﴿يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ فلا يفرقون في الإيمان بين نبي ونبي، ولا بين كتاب وكتاب.

﴿والمقيمين الصلاة﴾ أي: وأمدح المقيمين الصلاة، ونصبت على الاختصاص والمدح؛ إبرازاً لفضيلة إقامة الصلاة.

﴿والمؤتون الزكاة﴾ أي: المؤدون الزكاة المفروضة عليهم.

﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي: المؤمنون الإيمان الصحيح بأن الله هو الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد، ويصدقون باليوم الآخر وما فيه من مسؤولية وجزاء.

﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ [١٦٢] لا يعلم قدره إلا الله تعالى المتفضل به، ويلاحظ كيف أن الآية الكريمة أبرزت حقيقة الإسلام الكامل، بوجهيه اللذين لا ينفصلان عن بعضهما، وهما التصديق القلبي، والانقياد العملي.

الوحي والنبوة

ورداً على أهل الكتاب المنكرين لصحة رسالة نبينا ﷺ وصدق نبوته، قال تعالى:

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ كهود وصالح وشعيب عليهم السلام، فظاهرة الوحي إلى جميع الأنبياء واحدة، لا خلاف فيها، تقوم بين ذاتين، ذات علوية آمرة ملقية، وذات ضعيفة مأمورة متلقية.

﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ وهم الأنبياء الذين أوحى الله إليهم من قبائل بني إسرائيل.

﴿وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً﴾ [١٦٣] وهو الكتاب المنزل على داود عليه السلام.

﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل﴾ أي: سميناهم لك وأخبرناك خبرهم من قبل نزول هذه الآيات، كآدم وزكريا ويحيىٰ وإدريس وإلياس ولوط واليسع وذو الكفل، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ أي: لم نذكرهم لك ولم نقص عليك شيئاً من أخبارهم، فلا يعلمهم إلا الله تعالى، لكنه سبحانه نوه بذكرهم، وأخبر في عدة آيات أن أنبياءه ورسله إلى جميع الأمم، كقوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾[1] وقوله أيضاً: ﴿ولكل قوم هاد﴾[2].

فالنبوات والرسالات تتابعت على البشر منذ فجر وجودهم، وأولهم آدم عليه السلام، وآخرهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ، وتوقف الوحي وفتر بينه وبين عيسى عليه السلام تمهيداً لبعثته، كما قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾[3].

وانقطع الوحي وختمت النبوة بوفاته عليه الصلاة والسلام، فلا نبي بعده أبداً، كما أخبر عليه الصلاة والسلام في عدد من الأحاديث الشريفة الصحيحة، وأكد ذلك سبحانه بصريح قوله: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾[4].

﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ [١٦٤] أي: خاطبه تعالى من وراء حجاب وأسمعه كلامه بلا واسطة.

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ أي: أرسل الله تعالى الرسل يبشرون الناس بفضله ورحمته، وينذرونهم من عقابه وأليم عذابه؛ إزاحة لعذرهم، فلا يقولوا يوم القيامة: لولا أرسلت إلينا رسولاً يبين لنا شريعتك وعبادتك وطاعتك، فلقد تمت حجة الله على المكلفين من خلقه ببعثة الرسل وإنزال الكتب، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولاً﴾[5].

---

(١) فاطر: الآية ٢٤.
(٢) الرعد: الآية ٧.
(٣) المائدة: الآية ١٩.
(٤) الأحزاب: الآية ٤٠.
(٥) الإسراء: الآية ١٥.

﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ [١٦٥] فما أرسل الرسل وأنزل الكتب إلا بمحض إرادته ومشيئته وحكمته جل وعلا.

الشهادة الأزلية الخالدة

فإنكار أهل الكتاب لنبوة خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ، وجحودهم لرسالته، عدوان كبير على أعظم وأقدس حقوقه عليه الصلاة والسلام، فهو اتهام له بالكذب على الله تعالى، وهو أقبح أنواع البهتان، ولهذا رد جل وعلا عليهم أبلغ رد، فأعلن شهادته الأزلية الخالدة بصدق رسالته عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته، فقال:

﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ أي: من القرآن الكريم المعجز.

﴿أنزله بعلمه﴾ أي: أنزله وهو سبحانه عالم على من ينزله عليه، فهو العليم الحكيم المحيط بأحوال خلقه، يعلم أين يجعل رسالته، كما قال سبحانه: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾[1].

فسيدنا محمد ﷺ خيرته سبحانه من خلقه، وصفوته من عباده، اختاره بعلمه وحكمته ليحمل للناس أعظم رسالاته وأكملها وأتمها، ويختم به وحيه المنزل على خلقه.

﴿والملائكة يشهدون﴾ أي: والملائكة يشهدون أيضاً بصدق رسالتك وصحة نبوتك.

﴿وكفىٰ بالله شهيداً﴾ [١٦٦] أي: وحسبك يا محمد شهادة الله تعالى، وإن لم يشهد معه غيره، فشهادته أعلى وأعظم من كل شهادة، وتغنيك عن غيرها.

فالويل كل الويل لمن ينكر نبوته عليه الصلاة والسلام ولا يؤمن برسالته، بعد أن شهد الله تعالى له هذه الشهادة.

﴿إن الذين كفروا﴾ أي: كفروا برسالته عليه الصلاة والسلام وجحدوا نبوته.

﴿وصدوا عن سبيل الله﴾ أي: ومنعوا الناس عن سبيل الحق، وهو الإسلام، رسالة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام.

---

(١) الأنعام: الآية ١٢٤.

﴿قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾ [١٦٧] فهم الضالون المضلون، كما مر عند قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل﴾.

﴿إن الذين كفروا وظلموا﴾ أي: ظلموا سيدنا محمداً ﷺ، بإنكار رسالته وجحد نبوته.

﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ أي: إن أصروا على كفرهم وظلمهم، إذ ينطبق عليهم قوله تعالى المتقدم: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾.

﴿ولا ليهديهم طريقاً﴾ [١٦٨] ﴿إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً﴾ وذلك بسبب عنادهم وجحودهم وإصرارهم على ظلمهم.

﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ [١٦٩] أي: خلودهم أبداً في النار يسير عليه تعالى غير عسير.

وبعد أن بينت الآيات الشهادة الربانية الخالدة، على صحة رسالة النبي ﷺ وصدق نبوته، وجهت الدعوة إلىٰ كل الناس للإيمان به:

﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾ أي: جاءكم الرسول الخاتم بالدين الحق الثابت، الذي لا يقبل سبحانه غيره.

﴿فآمنوا خيراً لكم﴾ أي: فآمنوا برسالته، وأذعنوا لدعوته، خيراً لكم في الدنيا والآخرة.

﴿وإن تكفروا﴾ أي: إن تصروا على الكفر وتعرضوا عن قبول دعوته.

﴿فإن لله ما في السموات والأرض﴾ أي: فإنه سبحانه غني عنكم، لأنه مالك السموات والأرض. ونظيره قوله تعالى الذي مر: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾.

فما أرسل الله لكم هذا الرسول، وأنزل عليكم هذا الكتاب إلا رحمة بكم، إذ هو عليم بأحوالكم وبما يصلح لكم ويسعدكم في الدنيا والآخرة.

﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ [١٧٠].

حقيقة عيسى عليه السلام

ثم وجه سبحانه دعوة خاصة إلى النصارى من أهل الكتاب، بين لهم فيها حقيقة عيسى عليه السلام وعبوديته لله جل جلاله، كما بين لهم ضلالهم عن الحق، وكشف لهم سبب هذا الضلال، ثم دعاهم إلى الإيمان برسالة النبي الخاتم ﷺ، رسالة الإسلام، فقال:

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ أي: لا تتجاوزوا الحد في أمر عيسى فترفعوه فوق عبوديته لله تعالى، والغلو: مجاوزة الحد، وهو سبب انحراف النصارى عن الحق.

﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ أي: لا تفتروا على الله تعالى وتصفوه بصفات لا تليق بكماله ووحدانيته، فهو سبحانه منزه عن الصاحبة والولد والشريك.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول لأصحابه: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا عبدالله ورسوله»(١).

﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي: إنما هو عبد لله تعالى ورسول، شأنه كشأن بقية الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال سبحانه: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾(٢).

﴿وكلمته﴾ أي: وهو أيضاً كلمة الله تعالى، لأنه تعالى خلقه بالكلمة التكوينية، كن، فكان، كما مر آنفاً، وكما قال سبحانه: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾(٣).

﴿ألقاها إلى مريم﴾ أي: خلقها في مريم وأوصلها إليها، كما قال سبحانه: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضىٰ أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾(٤).

﴿وروح منه﴾ أي: وهو أيضاً روح من أمر الله تعالى ومن خلقه ومن عنده، فـ (من) ليست للتبعيض، بل هي لابتداء الغاية، كما في قوله سبحانه: ﴿وسخر لكم

---

(١) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥).
(٢) آل عمران: الآية ٥٩.
(٣) يس: الآية ٨٢.
(٤) آل عمران: الآيات ٤٥ ـ ٤٧.

ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾[1].

وأضيفت الروح إلى الله تعالى على وجه الاختصاص، لأنها مما استأثر تعالى بعلمها، كما قال سبحانه: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[2].

أو أضيفت على وجه التشريف، كناقة الله وبيت الله، وقد أضاف سبحانه روح آدم إليه أيضاً في قوله: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[3].

﴿فآمنوا بالله ورسله﴾ أي: فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا شريك له ولا ولد، وآمنوا برسله، وكلهم دعوا إلى عبادته تعالى وحده، وكلهم عبيد له، اختارهم تعالى لحمل رسالته إلىٰ خلقه.

﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ أي: لا تقولوا بالتثليث، فتجعلوا عيسى وأمه شريكين لله تعالى في صفات الألوهية، فهي عقيدة باطلة مكفرة، حكم سبحانه على قائليها بالكفر فقال: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾[4]، ووصف سبحانه المسيح وأمه بقوله: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنىٰ يؤفكون﴾[5]

﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أي: اتركوا هذه الأقوال الفاسدة الباطلة يكن خيراً لكم.

﴿إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد﴾ أي: تعالى وتقدس عن ذلك وتنزه.

﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي: خلقاً وملكاً وتدبيراً، فهو سبحانه غني عن الولد والشريك.

﴿وكفىٰ بالله وكيلاً﴾ [١٧١] أي: حافظاً ومدبراً، فهو سبحانه قائم على جميع مخلوقاته، فلا يحتاج إلى غيره، وكلهم محتاجون إليه جل وعلا.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/٤٦٨. الآية: ١٣ من سورة الجاثية.
(٢) الإسراء: الآية ٨٥.
(٣) الحجر: الآية ٢٩.
(٤) المائدة: الآية ٧٣.
(٥) المائدة: الآية ٧٥.

اعتزاز عيسى بعبوديته لله تعالى

ثم بينت الآيات أن عيسى عليه السلام يعتز بعبوديته لله جل جلاله، ويتمسك بها ولا يأباها:

﴿لـن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ أي: لن يأنف عيسى عليه السلام عن عبوديته لله تعالى ولن يتركها ويتخلىٰ عنها أو يتنحىٰ عنها.

وأصل معنىٰ يستنكف، من نكفت الشيء إذا نحيته، ونكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك عن خدك.

﴿ولا الملائكة المقربون﴾ أي: وكذلك الملائكة المقربون، فإنهم مع علو منزلتهم وكرامتهم، لن يستنكفوا عن عبوديتهم لله تعالى وخضوعهم له جل جلاله.

﴿ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر﴾ أي: ومن يمتنع عن عبادته تعالى ويستكبر من جميع خلقه.

﴿فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ [١٧٢] أي: سيجمعهم يوم القيامة، فيحاسبهم ويجازيهم.

﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وهم الذين عبدوه سبحانه وحده، وأذعنوا لأمره ومشيئته، وتمسكوا بشرعه واتبعوا رسله.

﴿فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ بما أعد لهم في الجنة من النعيم المقيم.

﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ أي: وأما الذين لم يذعنوا لأمره ولم ينقادوا لدينه وشرعه.

﴿فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ [١٧٣].

برهان ونور

بهذا البيان الواضح ظهرت معالم الحق وأشرقت أنواره، وتميز تميزاً ظاهراً عن الضلال، بدون أدنىٰ غموض أو لبس، وآن للآيات الكريمة أن توجه نداءها مرة ثانية إلى جميع الناس، كما فعلت في أول السورة ومطلعها:

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ أي: قد جاءكم في هذه السورة وفي غيرها من سور القرآن الكريم، برهان واضح جلي، من ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، ورباكم فدلكم على العقيدة الصحيحة والمنهج القويم.

﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ [١٧٤] أي: وأنزلنا إليكم أيضاً نوراً موضحاً، وهي الأحكام التي شرعها الحق لكم، والتي تبين لكل إنسان حقوقه وواجباته، فإذا ما التزمتم بهذه الأحكام وتمسكتم بها، في جميع شؤون حياتكم، حفظت لكل إنسان حقوقه كاملة، فلا يعتدي أحد على أحد، ولا يظلم أحد غيره، فالنور قوي واضح، يميز بين الحقوق، ويعرف بالواجبات.

ودين الله وشريعته هو النور، والإعراض عنه ظلمة وحيرة وعدوان وخذلان.

﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به﴾ أي: تمسكوا بدينه وشرعه.

﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾ أي: ببركة تمسكهم بدينه وشرعه ينزل عليهم الرحمات، ويبارك لهم في الخيرات، فيعيشون في سعة ورخاء وسلام.

﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ [١٧٥] أي: ويدلهم على الطريق الذي يوصلهم إلىٰ رحمته وجنته ورضوانه، وهو الصراط المستقيم، طريق الإسلام لله تعالى وحده، والاستسلام لأمره وشرعه، الطريق الذي يتوجه المؤمنون إلىٰ الله تعالى في كل صلاة، يسألونه بضراعة أن يثبتهم عليه: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.

حقوق الله تعالى وحقوق الإنسان

فحق الله على عباده أن يعبدوه وحده، ويتمسكوا بدينه وشرعه، وحق العباد على الله تعالى أن يتفضل عليهم برحمته وهدايته وجنته، وفي الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «هل تدري ما حق الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» ثم قال: «هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أن لا يعذبهم»[1].

ونبرز من خلال طاعة الناس لله تعالى وعبادتهم له وحده، حقوق الإنسان على أخيه الإنسان، فهي في الحقيقة حقوق لله تعالى، لأنه هو الذي قررها للإنسان وشرعها له، وقد أخر تعالى الآية الثالثة من آيات المواريث، التي يقرر فيها حق الأخوة الأشقاء في الميراث إلىٰ آخر سورة النساء، فختم بها السورة، بعد أن قرر في سباقها حقوقه تعالى على عباده، وحق عباده الذي تفضل به عليهم، وأفاد بذلك أن حقوق الإنسان

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٣٠).

في الإسلام من حقوق الله تعالى على عباده، فالالتزام بها والمحافظة عليها عبادة وطاعة لله تعالى:

﴿يستفتونك﴾ أي: يسألونك أن تفتيهم.

وفي الحديث الشريف عن جابر رضي الله عنه: دخل عليّ النبي ﷺ وأنا مريض، فدعا بوضوء، فتوضأ ثم نضح عليّ من وضوئه، فأفقت فقلت: يا رسول الله، إنما لي أخوات، فنزلت آية الفرائض(١).

﴿قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وهو من لا ولد له ولا والد.

﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾ أي: وليس له والد، فاكتفىٰ بذكر أحدهما عن الآخر، لأن السؤال في الفتيا كان عن الكلالة، والمراد من الولد الذكر والأنثىٰ.

﴿وله أخت﴾ أي: له أخت شقيقة من أبيه وأمه، أو من أبيه.

﴿فلها نصف ما ترك﴾ أي: لها نصف ما ترك الميت من المال.

﴿وهو يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ أي: والأخ يرث الأخت ويأخذ جميع مالها، إن قدر الأمر على العكس، بأن ماتت هي وبقي أخوها بعدها، وليس لها ولد ذكراً كان أو أنثىٰ.

﴿فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك﴾ أي: فإن كانت الأختان اثنتين، فلهما الثلثان مما ترك الميت.

﴿وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي: فللذكر منهم نصيب ثنتين من أخواته.

﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أي: يبين الله لكم هذه الأحكام لئلا تضلوا، فهي بمثابة النور الكاشف، الذي يبين لكم الصراط المستقيم الذي يحفظكم من الضلال.

﴿والله بكل شيء عليم﴾ [١٧٦] فهو سبحانه يعلم ما يصلحكم ويحفظ لكم حقوقكم ويسعدكم في الدنيا والآخرة، فالتزموا بأحكام شرعه، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين وسلم تسليماً كبيراً

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الفرائض (٦٧٤٣).

المـــراجع

ـ صحيح البخاري: المطبوع مع فتح الباري، رئاسة إدارات البحوث.
ـ صحيح مسلم: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، رئاسة إدارات البحوث.
ـ الترغيب والترهيب: للمنذري، الطبعة القطرية.
ـ تيسير الوصول: للشيباني، البابي الحلبي.
ـ بذل المجهود في حل أبي داود: ط ٣، المكتبة الإمدادية.
ـ حياة الصحابة: للكاندهلوي، دار القلم.

من كتب التفسير:

ـ روح المعاني: للآلوسي، دار الفكر.
ـ الجامع لأحكام القرآن: (تفسير القرطبي)، تحقيق أطفيش.
ـ جامع البيان: (تفسير الطبري)، دار الفكر.
ـ مختصر تفسير ابن كثير: للصابوني، دار القرآن الكريم.

مجموعة من التفاسير:

ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
ـ التفسير الكبير: (تفسير الفخر الرازي)، دار الفكر.
ـ تفسير أبي السعود: دار إحياء التراث العربي.
ـ زاد المسير في علم التفسير: لابن الجوزي، المكتب الإسلامي.
ـ المحرر الوجيز: لابن عطية، الطبعة القطرية.
ـ فتح القدير: للشوكاني، مكتبة المعارف بالرياض.
ـ في ظلال القرآن الكريم: لسيد قطب، دار الشروق.
ـ تفسير التحرير والتنوير: لابن عاشور، الدار التونسية.
ـ التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران: للمؤلف، دار القلم.
ـ الأنساب والأولاد: للمؤلف، دار القلم.
ـ الزواج في الإسلام: للمؤلف، مكتبة البيت.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
موضوع سورة النساء ٧
الفصل الأول: حقوق الضعفاء ٩
الأصل الإنساني الواحد ١١
مبادىء في التواصل والتعاون ١٣
المحافظة على أموال اليتامى ١٤
تحريم ظلم البنات اليتامى ١٦
تشريع تعدد الزوجات ١٧
حق الزوجة في المهر ١٩
الحجر على السفهاء ٢٠
تسليم الأموال في اليتامى ٢٢
تقرير المزيد من حقوق الضعفاء ٢٣
الجزاء من جنس العمل ٢٥
ميراث الآباء والأبناء ٢٦
ميراث الزوجين ٢٩
ميراث الإخوة من الأم ٢٩
سلامة العرض ٣١
المسارعة إلى التوبة ٣٢
تحريم مظالم جاهلية ٣٤
تحريم الزواج من زوجات الآباء ٣٦
المحرمات في الزواج ٣٨
تحريم نكاح المتعة ٤١
حقوق الزوجات المملوكات ٤٣
تخفيف العقوبة عن الضعفاء ٤٦

تذكير وتحذير ٤٧
حرمة الأموال والأنفس ٤٩

الفصل الثاني: آفات نفسية ٥٣
تربية وتشريع ٥٥
نسخ التوارث بالتحالف ٥٦
تنظيم الأسرة ٥٧
معالجة نشوز المرأة ٥٨
أسرة إنسانية واحدة ٦٠
حقوق الجيران ٦١
حق الضيف والغريب ٦٢
حقوق العبيد ٦٢
التحذير من البخل ٦٣
التحذير من الرياء وحب الظهور ٦٥
عدل وفضل ٦٦
الحرص على الطهارة ٦٨
الضالون المضلون ٧١
طمس الوجوه ٧٤
الذنب الذي لا يغفر ٧٥
المادحون أنفسهم ٧٦
المؤمنون بالجبت والطاغوت ٧٨
الكافرون برسالات الأنبياء ٧٩
من الحقائق العلمية في القرآن ٨٠

الفصل الثالث: الحكم بشريعة الله تعالى ٨٣
أداء الأمانات وحفظ الحقوق ٨٥
طاعة أولي الأمر وتحكيم شريعة الله ٨٨
الإعراض عن تحكيم شريعة الله كفر ونفاق ٩٠
أعذار واهية وأيمان كاذبة ٩١
طاعة الرسول وشفاعته ٩٢

يسر الشريعة وسماحتها ٩٤
الرفيق الأعلى ٩٦

الفصل الرابع: التكليف بالجهاد والحض عليه ٩٩
تحذير ونفير ١٠١
المتقاعسون عن الجهاد ١٠٢
وجوب مساعدة المستضعفين ١٠٤
بين غايتين ١٠٥
تطير ونفاق ١٠٨
التحدي بمعاني القرآن الكريم ١١٠
التحذير من نشر الإشاعات ١١٢
التحريض على القتال ١١٣
الدال على الخير كفاعله ١١٥
السلام في الإسلام ١١٦
توحيد المواقف من المنافقين ١١٨
حكم القتل خطأً ١٢١
تحريم العدوان على حق الحياة ١٢٣
الأمر بالتثبت في أثناء الجهاد ١٢٥
درجات المجاهدين في الجنة ١٢٦
الجهاد من بلاد الكفر والظلم ١٢٨
قصر الصلاة في السفر ١٣٢
صلاة الخوف ١٣٣

الفصل الخامس: حادثة بني الأبيرق ١٣٩
الحادثة وحقوق الإنسان ١٤١
اجتهاد النبي ١٤٢
تحريم الدفاع عن المجرمين ١٤٣
اتهام البريء بهتان ١٤٥
عصمة النبوة ١٤٦
حجية الإجماع ١٤٨

حقيقة الشرك ومصدره ١٥٠
صرعى الأماني الباطلة ١٥٢
ميزان العقاب والثواب ١٥٤
أحسن الناس ديناً ١٥٥
الفصل السادس: الثبات على الإيمان والتزام التقوى والعدل ١٥٧
تعظيم حقوق الضعفاء ١٥٩
اختيار أخف الضررين ١٦٠
العدل بين الزوجات ١٦٢
الوصية الخالدة ١٦٣
التزام العدل والثبات عليه ١٦٥
الدوام على الإيمان والثبات عليه ١٦٧
تحريم الجلوس في مجالس الكفر والمعاصي ١٦٧
من صفات المنافقين ومواقفهم ١٦٩
التشهير بالظالمين وفضحهم ١٧٣
الفصل السابع: عقائد أهل الكتاب ١٧٧
كفر الجاحدين لرسالة الإسلام ١٧٩
جحود وعناد ١٨٠
كفر متوارث ١٨٢
عدوان أهل الكتاب على حقوق الناس ١٨٥
الوحي والنبوة ١٨٦
الشهادة الأزلية الخالدة ١٨٨
حقيقة عيسى عليه السلام ١٩٠
اعتزاز عيسى بعبوديته لله تعالى ١٩٢
برهان ونور ١٩٢
حقوق الله تعالى وحقوق الإنسان ١٩٣
المراجع ١٩٥
فهرس الموضوعات ١٩٧